فلسفة التاريخ عند المقريزي

أ.د / سليمان عبدالدايم الخطيب

أستاذ ورئيس قسم الفلسفة الإسلامية كلية دار العلوم

جامعة المنيا

بسم الله الرحمن الرحيم

« المقدمه »

قليلة هي البحوث التي تعسى لابراز الدور المصري في تاريخ الأفكار - وخاصة في مرحلة العصور الوسطى الاسلاميه ، والتي عانت فيها مصر من جور المماليك وتخلفهم .

كما أننا بحاجة ما سة إلى تجلية دور العقل المصري في تاريخه الحافل ، حتى يتسنى لنا الوقوف عند عطاء الشخصيه المصرية في كافة الميادين الفكرية ، ولنؤكد دوماً ، على أن عطاء مصر في ميدان الفكر والفلسفة - بل وفي أشد عصورها تأزماً - تميز بالإضافة التي لابد من استجلاءها لنبرز مدى ما اسهمت به وخاصة في ميدان التراث الفكري الأسلامي .

ويمثل الفكر التاريخي في تراثنا جانباً لا يستهان به في عطائنا الفلسفي والحضاري ، وقد قدمت المكتبة التراثية في هذا لاإطار العديد من الأسماء التي ساهمت بصورة فعالة في هذا الميدان الخصب ، ويقف على رأس هؤلاء العالقة عبد الرحمن ابن خلدون ، ودوره في هذا الميدان لا يحتاة إلى تركيز أو اعادة ٠

ونحاول في هذا البحث المتواضع أن نقدم شحصية عربية اسلامية - وان كان غير مصري الجنسية - إلا أنه قد عاش فيها منذ صغره واعترف بفضلها في تربيت وتنشئته العلمية والمنهجيه ألا وهو " أحمد ين علي المقريزي "

ذلك المؤرخ الكبير الذي تنوعت مؤلفاته حول تاريخ مصر في عصر السلاطين المماليك ، وجهوده في ميدان التاريخ بصفةعامة ، وهو ما قد اشبع بحثاً وكتابة .

ونحن نحاول أن نقدم زاوية جديدة تلقى الضوء علي اضافات ذلك المؤرخ الكبير ، والتي تخص عطاءه في ميدان فلسفة التاريخ وتضعه في مكانه ومصاف المدرسة الخلدونيه في فلسفة التاريخ ، وذلك إبرازاً لجهوده في هذا الميدان الحيوي من التراث المصري الفكري في عصر سلاطين المماليك .

المؤلف

سليمان الخطيب

الفصل الأول
الفلسفة والتاريخ

لا شك أن دراسة الماضي الحضاري ـ سواء لتسجيله أم لفلسفة حركته ووجهته ـ لا يمكن إن تتم إلا من خلال رؤية فلسفيه نابعة من الموقف الإنساني الذي يحدد هوية الباحث ويوجه تطلعاته نحو استيعاب الحدث الحضاري ، ومن ثم يستطيع الوعي الحضاري المساهمة بقدر يتسم بالفاعلية في حركة الإنسان وتوجهه نحو المستقبل .

وإذا كان يشار إلى القرن الثامن عشر على أنه عصر التنوير . Age of enlightenment .

ويقصد بذلك سيادة فلسفة عقلية تجريبيه مادية ترفض الميتافيزقيا والدين وتهتم بالرياضة والفلك ، والطبيعة ، والكيمياء ، والتاريخ الطبيعي ، والجغرفيا والطب ، أي : فلسفة تؤمن بالتغيير وتسعى إلى التجديد في كل شئ تحدها ثقة مطلقة في العقل ، ويدور التفكير فيها حول الإنسان ، فالأهتمام بالتاريخ في هذا القرن ، مظهر من مظاهر الأهتمام بالأنسان ، لأن دراسة الماضي تزيدنا خبرة وتجربة بالحاضر ، لقد حدث تغيير جذري بالفعل في طرق الكتابة التاريخية ، فلم يصبح التاريخ مجرد سرد ، لأحداث المعارك وسير الملوك ، واخبار البلاط ، وإنما شمل التاريخ شتى مظاهر النساط والتجارة الصناعة ، إن الحروب وسير الملوك ، لا تفصح عن

التقدم ، بقدر ما يفصح عن نشاط الشعب ، في مجالات العلم والفن والفلسفة والآدب والتكنولوجيا وغير ذلك ، « ١ »

يقول فولتير في هذا المعنى : " إن بعض المؤرخين يهتم بالحروب وبالمعاهدات ، ولكني بعد قراءة وصف ما بين ثلاثة وأربعة آلاف معركة وبضع مئات من المعاهدات لم أجد نفسي أكثر حكمة من قبلها ، حيث لم أتعرف إلا علي مجرد حوادث لا تستحق عناء المعرفة ، فإن الخير الحقيقي للإنساية ليس في قوادها ، ولكن في فلاسفتها وعلمائها وشعرائها " « ٢ »

ويقول جوستاف لوبن : " إن آعظم ما في معرفة التاريخ من مصاعب ، كون الدي يكتنفنا ونراه جيداً ، صادراً عن ماض بعيد لا نراه ، فيقضي حسن إدارك الحوادث ، الرجوع إلى سلسة طويلة من العلل السابقة ، حيث إن حال الأمة الحاضر يتعين بتعاقب أحوالها السابقة ، ويخرجة عن الحاضر من الماضي كما يخرج الزهر من البذر " . « ٣»

ولكي نفهم احداث التاريخ ، ينبغي أن نفحص نموها التدريجي ، منذ بوادرها الأولى ، حتى شكلها الحالي ، وتاريخ كل أمة نتاج نمو طويل ، ولا يجوز الحكم عليه أو تقويمه إلا علي ضوء معرفة كاملة بماضي هذه الأمة ،

---

١ - في فلسفة التاريخ : د . احمد محمود صبحي : ص ٨٢ ـ ٨٣ : الأسكندرية مؤسسة الثقافة الجامعية : ١٩٧٥م

٢ - فولتير : رسائل فلسفيه : ص ٥٩ : ترجمة عادل زعيتر .

٣ - فلسفة التاريخ : جوستاف لوبون : ترجمة : عادل زعيتر : ص ١٠ ـ ١٢ : دار المعارف ك ١٩٥٤م

الذي هو في الحقيقة تجسيد لأحد المثل العليا الذي يظهر طبقاً لقوانينه الخاصة عبر الزمان ، فواجب الإنسان العاقل أن يدرس الماضي ليكشف قوانين النمو تلك ، ثم يقوم بدوره في عملية التفتح المقبلة . « ١ »

أن المستقبل يرتبط بالماضي عن طريق الحاضر ، ارتباطاً معنوياً في فلسفة التاريخ ، إذ الحاضر حصيلة الماضي ، فالتاريخ الماضي ، هو الذي جعلنا على ما نحن فيه في الحاضر ، إن الصورة التي نرسمها عن التاريخ ، تشكل عاملاً في احتيارنا والوسيلة التي نفكر بها عن التاريخ تحدد امكانياتنا . « ٢ »

يقول كارل ياسبرز : " يحتاج عصرنا إلى تاريخ الانسانية بأكمله ليزودنا بمعايير يمكن أن نفهم بها معنى ما هو حادث في عصرنا . « ٣ »

وكان لابد أن يتجه النشاط الإنساني إلى أقرب الحقول والزمها للإنسان ، وهو حقل التاريخ البشري ، وما تقدمه الدراسة التاريخية من كافة الأنشطة ، إبداعاً وسقوطاً وانتكاساً ووفق منطق كل عصر يتقدم الفكر بتفسير لحركة التاريخ والقيام بمحاولات للتنبؤ بالمستقبل عن طريق الدراسة الواعية للماضي التاريخي ، وفق منهجية واعية .

---

١ - تكوين العقل الحديث : جون هرمان راندال : ترجمة : جورج طعمة : ص ٥٥ : بيروت : دار الثقافة : ج١ : ١٩٦٥م

٢ - في فلسفة التاريخ : مرجع سابق : ص ١٣٠

٣ - Karl Jaspers : the origin and goal of history : P . 232

يبدو واضحاً في مجال الدراسات الأنسانية ، أن المهم ليس تثبيت الوقائع الماضية ، وإنما المهم هو وعي المؤرخ بالواقع التاريخي ، إذ أن أثر المعرفة التاريخية لايكمن في معرفة واقعه من الوقائع ، وإنما يكمن في وعي الإنسان من خلال هذه الواقعة ، وعلى ذلك فإن التاريخ والفلسفة، يجب أن يكونا عضوين متلازمين للقيام بعمل واحد هو معرفة الأنسانية ، فالتاريخ يمد الفلسفة بالوقائع ، على حين تمد الفلسفة التاريخ بالربط الكلي ، فالتاريخ لا ينبغي أن يدونه إلا أصحاب النظره النقدية والرؤية التحليلة . « ١ »

وليس التاريخ مجرد وثائق ومستندات ، إن مجرد تجميع المادة التاريخية يجعل من التاريخ عملاً من أعمال " القص والصق " ومن المؤرخ مجرد كاتب حوليات ككاتب الأرشيف ، أن المؤرخ لا ينظر إلى مادته التاريخية نظرة برانيةوإنما ينظر خلال الوقائع ليكشف الفكر الذي يتبطنها ويحركها ، ويكشف المؤرخ الفكر الكامن وراء ما تردده الوثائق بأن يتمثل الماضي في ذهنه أي أن يعيد التفكير فيه على النحو الذي وقع . « ٢ »

ويقصر أغلب المؤرخين معنى التاريخ على بحث واستقصاء حوادث الماضي ، كما يدل على ذلك لفظ « Historia » المستمد من الأصل اليوناني

١ - دراسات في الحضارة الإسلامية :د . احمد ابراهيم الشريف : ص١٥٢ : القاهرة : دار الفكر العربي : ط ٢ : ١٩٨١م
٢ - في فلسفة التاريخ : مرجع سابق : ص ٣٤

القـديم ، أي كل مـا يتـعلق بالأنسـان منذ بدأ يتـرك آثاره علي الصـخـر والأرض . « ١ »

وذلك بتسجيل أو وصف أخبار الحوادث التي ألمت بالشعوب والأفراد ، وقد تدل كلمة تاريخ على مطلق مـجرى الحوادث الفـعلي الذي يصنعه الأبطال والشعوب . « ٢ »

والتي وقعت منذ اقدم العصور ، استمرت وتطورت في الزمان والمكان حتى الوقت الحاضر .

والتاريخ في اللغة " الاعلام بالوقت ، يقال أرخت الكتاب وورخته - أي بينت وقت كتابته " « ٣ »

والتـاريخ تعـريف الوقت ، والتـوريخ مـثله ، يقـال أرخت وورخت ، وقيل اشتقاق من الأرخ يعني - بفتح الهمزة وكسرها - وهو صغار الأنثى من بقرالوحش ، أنه شيء حدث كما يحدث الولد . « ٤ »

ومن خلال تاريخ الفلسفة ، يمكننا التعرف على طبيعة الفكرة الفلسفية ، من حيث نشأتها وتطورها ، وتفاعلها مع غيرها من نتاج الفكر الأنساني ، ذلك أن الفكر الفلسفي لا ينفصل عن بيئته الحضارية والتاريخية ، بينما

---

١ - Oman , chr : on the writing of history : london : 1939 : P . 2

٢ - علم التاريخ : هرنشو : ترجمة : د . عبد الحميد العبادي : ص ٨ : القاهرة : ١٩٣٧

٣ - الصحاح :اسماعيل بن حماد الجوهري :مادة :أرخ : ٤١٨/١

٤ - لسان العرب : مادة : تاريخ : جـ٣

نستطيع في أي علم آخر أن نفصل بين موضوع العلم وتاريخه ، فمثلاً : نستطيع الفصل في علم الفيزياء بين تاريخ هذا العلم ، وبين ما يدرسه علم الطبيعة المعاصرة ، ولكننا في نطاق الفكر الفلسفي ، لا نسطيع أن نفصل بين تاريخ الفكر وبين النتاج الحاضر للعقل الأنساني في مجال الدراسات الفلسفية . « ١ »

والتاريخ من المعارف الأنسانية التي تعتبر وثيقة الصلة بالفكر الفلسفي ، لأن الفلسة تلتقي بالتاريخ من خلال علاقات عديده ، وخاصة بعد انفصال العلوم الجزئية عنها . لقد ارتبطت الفلسفة بالتاريخ ليس فقط من حيث هو تاريخ أي : التفكير مي تطورالتاريخ وحركته ومحاولة البحث عن قانون يحكم هذا التطور ويصف هذه الحركة ، بل إن تاريخ الفلسفة ذاته ليس رصداً ميتاً للمذاهب والنظريات الفلسفية عبر التاريخ دون رجوع إلى ظروفها التاريخية ، وتعبيرها عن روح العصر ، بل هي معرفة التجارب البشرية الفردية والأجتماعية والتاريخية التي خرجت منها هذه الفلسفات ، فتاريخ الفلسفة بهذا المنظور هو تاريخ الأنسان في مواجهة الواقع وحركة التاريخ ، لذلك كان هناك نوع من تاريخ الفلسفة يقوم بالرصد الكمي لتاريخ الأفكار ، بلا منظور أو قانون أو دلالة .

---

١ - اسس الفلسفة : د. توفيق الطويل : ص ٩٢ : القاهرة : دار النهضة العربية : ط ٦ : ١٩٧٦م

والمنهج الآخر هو محاولة الدخول في أعماق التاريخ ، والذهاب إلى ماوراء الأفكار ، لمعرفة دلالتها على عصورها ، وظروف نشأتها والتجارب الحية التي وراءها ، وصلتها بالمرحلة التي قبلها ، وتمهيدها للمرحلة التي بعدها . « ١ »

ويؤكد على ذلك الربط المنهجي والتاريخي المرحوم الأستاذ الدكتور " توفيق الطويل " حيث يقول : ان فلسفة التاريخ تهتم بتفسير وفهم مجرى التاريخ في ضوء نظرية فلسفية معينة ، وتضع لعلم التاريخ اساً فلسفياً بتمحيص المنهج ، الذي يصفه المؤرخون " تجريبياً أو استنباطياً أو مزاجاً منهما " ومناقشة وتحليل مضمون المصادر التاريخية ، " كالعلية والفرض والقانون ونحوه " ولا تعني فلسفة التاريخ بمجرد سرد الوقائع وتفسيرها ، بل ترى الانسانية تسير بمقتضى قوانين ثابتة تتخطى الزمان والمكان ولا تجري وفق الأهواء أو المصادفات ، ومن ثم كانت مهمة فلسفة التاريخ أن تكشف عن هذه القوانين التي تفسر تاريخ البشرية ، وتتميز عن مهمة علم التاريخ بأنها أعم إذ أنها منهج عقلي يقوم علي فرض الفروض ويبين مدى صحتها بأدلة تتمشى مع منطق الواقع ، والإستدلال باحداث الماضي علي ميول

١ – في فلسفة العلوم الإنسانية : د . عزمي اسلام : ص ٢٤٤ : الكويت : منشورات عالم الفكر م١٥ : ع٣ : ديسمبر ١٩٨٤م

الأنسان وافكاره التي كانت حوادث التاريخ تطبيقاً لها ، وتأويل الحوادث التاريخية في ضوء نظرية فلسفية ، وهي تشبه فلسفة العلم من حيث أن كلتيهما تمكننا من تمحيص مناهج البحث في العلوم أو في التاريخ تمحيصاً نقدياً لوضع المشاكل العامه التي لا يعرض لمعالجتها العلم أو التاريخ ، وفي هاتين الوظيفتين ما يبرر قيام كل من هاتين الفلسفتين ، بهذا يفسر التاريخ تفسيراً فلسفياً . « ١ »

إذن فمهمة فلسفة التاريخ تصبح إذن مهمة مزدوجة تتمثل في :

١ - الكشف عن النظريات الفلسفية التي تفسر مجرى التاريخ ، وتأويل الأحداث التاريخية في ضوء تلك النظريات .

٢ - الكشف عن القوانين التي تحكم مسيرة التاريخ في مجراها ، وهذا يتطلب أو يقتضي السؤال عما إذا كانت هناك قوانين ثابتة في التاريخ .

كما يجب أن نضيف الإشارة إلى الطبيعة التاريخية للفلسفة ، بوصفها حاجة حيوية لحركة الفكر في مساره ، وإذا كان النشاط الفلسفي تاريخياً بطبيعته ، فإن التاريخ فلسفي بطبيعته ذلك أن الفلسفة في التاريخ تمثل موضوع الجدل الحاضر ، لأن التاريخ يتعامل مع واقعية الحياة الأنسانية ، في الزمن ، ولأن الحركة الأساسية أو الجوهرية للحياة الإنسانية ، تكون بإتجاه وجودها الشرعي ، فإن التاريخ بناء علي هذا ، يتضمن امكانيات متعددة لا يمكن ادراجها إلا من خلال إمكانات الفكر الفلسفي .

١ - اسس الفلسفة : مرجع سابق : ص ٩٢ ـ ٩٣

ويشـيـر مـصطلح فلسـفـة التـاريخ " إلى تأمل النمـاذج والمعـاني ، والأحداث التاريخية ،عندالمؤرحين الفلاسفة ، وكما يشير المصطلح نفسه ، فإن هذا الفرع من الفكر البشري ، وهذا الإستخدام يتشابه أيضاً ، بتعبير فلسفة العلم ، أن يشمل ما يعني المعرفة التاريخية ، والمنطق التاريخي ، إن ذلك علي نحو ، يشير بتطوير احتياجاتنا إلى هذا الفرع من فروع الفكر ، كما يجب أن نستخدم المصطلح للأحساس بشكل أكثر تحديداً للتأمل بشكل عام .

وبالرجوع إلى الخصائص العامة للتقاليد الأوربية الفلسفية ، يمكننا أن نفسر جزئياً وجود الآراء الفلسفيه ، التي تميل إلى النظر في العلوم الطبيعيةكمادةلدراستها : كما أن المحك الخاص للعديد من مناهج البحث ، في الفكر التاريخي قد أتخذ بالرجوع إلى نماذج علمية . « ١ »

ولقد اصبح الأهتمام بالتاريخ في واقعنا المعاصر من أهم النواحي التي تساهم في التكوين الفكري والثقافي لكافة التوجهات المذهبية والفكرية ، وذلك لأن الأهتمام بالتاريخ هو اهتمام بصانع هذا التاريخ ، وهو الانسان الذي هو محور الفعالية في حركة التاريخ ووجهته .

---

١ - و . هـ . ولسن : مدخل الفلسفة التاريخ : ص ٩ : ترجمة : أحمد حمدي محمود : القاهخرة : موسسة سجل العرب : ١٩٦٢م

التاريخ بين العلوم الإنسانية والطبيعية :

لقد انعكس ما احرزته الإنتصارات العلمية في العصر الحديث ـ وبالتحديد منذ القرن السابع عشر ـ على العلوم الإنسانية ، وخاصة مع سيطرة المنهج التجريبي على اسهامات العلوم الطبيعية ، وبرزت هذه الأنعكاسات على علم التاريخ بوصفه من العلوم التي تهتم بسلوك الأنسان في الزمان والمكان ، وفرض التساؤل نفسه نفسه حول مدى امكانية تطبيق منهج العلوم الطبيعية على علوم الأنسان ، حتى تستطيع تحقيق اكبر قدر من الواقعية والإنجاز في محيط الانسان الحديث الذي يسعى« إلى صياغات فكرية تتسم بالموضوعية وفعالية النتائج ، وقد انعكست الإتجاهات العلمية على الدراسات التاريخية في النقاط التالية :

١ - النزعة النقدية التي سادت عصر التنوير كرد فعل لسلطة الدين ، وقد اتخذ التيار النقدي طابعاً عنيفاً إلى حد محاولة اخضاع الوقاع التاريخي المذكورة في الكتاب المقدس للنقد التاريخي .

٢ - النزعة الإنسانية التي تعلي من قدر الإنسان بعد أن تحرر من سلطة الدين التي تغض من شأنه وتعتبره وارثاً للخطيئة الأصلية ، لقد أصبحت أفعال الإنسان موضوع التاريخ بصرف النظر عن التقييم الديني لهذه الأفعال ، كما استبعدت أية قوة غيبية في تحديد مسار التاريخ .

وبعد أن تصدعت سلطة كل من الدين والفلسفة ،أصبح العلم هو وحده القادر على إغراء التاريخ . « ١ »

هكذا سرت في الدراسات التاريخية ما يسمى بالنزعة الطبيعية ، نزعة تمثل انعكاس منهج العلم الطبيعي علي التاريخ ، وأصبحت هذه النزعة تنشد أن يصبح التاريخ علماً بالمعنى الفيزيقي للعلم :

١ - منهج تجريبي استقرائي وان كان غير مباشر في حالة التاريخ .

٢ - حشد مادة تاريخية فيها حصيلة هائلة من التفضيلات التاريخية .

٣ - حصر الواقعة المراد دراستها زماناً ومكاناً حتى يستطيع الباحث أن يستوفيها دراسة .

٤ - الوصول إلى احكام كلية تمكن من الإستفادة بها في الحاضر والمستقبل . «٢»

ويرى بعض علماء الانسانيات أنه سواء أكان التاريخ علماً أم لم يكن ، فهو فن من الفنون ، وان العلم لايمكن أن يعطينا عن الماضي سوى العظام المعروقة اليابسة ، وإذن لابد من الاستعانة بالخيال لكي تنشر تلك العظام وتبعث فيها الحياة ، ثم هي بحاجة كذلك إلى براعة الكاتب حتى تبرز في الثوب اللائق بها . « ٣ »

---

١ - في فلسفة التاريخ : مرجع سابق : ص ١٥
٢ - المرجع السابق : ص ١٦
٣ - هرنشو : علم التاريخ : مرجع سابق : ص ٣ ـ ٤

فمثلاً لا يستطيع العلم الطبيعي أن يفسر لنا حريق موسكو في عهد نابليون بونابرت في سنة ١٨١٢ إلا على اساس قوانين الأشتعال ، ولا بد من تدخل المؤرخ لكي يشرح الأسباب والظروف السياسية والعسكرية التي أدت إلى ذلك الحريق . « ١ »

فلابد من قلم المؤرخ ـ أو قلم الأديب ـ لكي يصف لنا الحريق وما تركه من الآثار ، فكل منهما يكمل الآخر ، وكلاهما ضروري لتقدم المعرفة الإنسانية .

ويرى هرنشو أنه علي الرغم من أننا لا يمكن أن نستخلص من دراسة التاريخ قوانين علمية ثابتة علي غرار ما هو كائن في العلوم الطبيعية ، فإن هذا لا يجوز أن يجرده من صفة العلم ، وعنده أن اسناد صفة العلم إلى موضوع ما ، أن يمضي الباحث في دراسته ، مع سعيه إلى توخي الحقيقة ، وأن يؤسس بحثه على حكم ناقد يطرح منه هوى النفس ، ويباعد نفسه عن كل افتراض سابق ، مع امكان التصنيف والتبويب فيه . « ٢ »

ويستمر هرنشو في الحديث عن عملية التاريخ فيرى أن التاريخ ليس علم تجربة واختبار ، ولكنه علمي نقد وتحقيق ، وان اقرب العلوم الطبيعية شبهاً هو علم " الجيولوجيا " فكل من الجيولوجي والمؤرخ يدرس آثار

---

١ - Fling F . M . the writing history , An introduction to historical Method New-Haven , yoleun , press . 1926 P . 20

٢ - علم التاريخ :مركع سابق : ص ١٢ ـ ١٣

الماضي ومـخلفـاته ، لكي يستـخلص مـا يمكن استـخلاصـه عن الماضي والحاضر علي السواء ، ويزيد عمل المؤرخ عن عمل الجيولوجي من حيث اضطرار الأول إلى أن يدرس ويفسر العامل البشري الأرادي والأنفعالي ، حتى يقترب بقدر المستطاع من الحقائق التاريخة .

وهذه الآراء تبرز أن التاريخ يجمع في حقيقته بين العلم والآدب والفن في وقت واحد . ولعل ذلك يدفعنا إلى تناول أهم الصفات الواجب توافرها في المؤرخ حتى يتسم جهده بالموضوعية وليقترب في نفس الوقت من المنهجية العلمية التي يسعى التاريخ إلى الأتصاف بها ، ومن أهم هذه الصفات كما يعرضها صاحب " منهج البحث التاريخي " :

أولاً : من الصفات الواجب توفرها في المؤرخ ـ كما في غيره من الدراسين ـ أن يكون محباً للدرس جلداً صبوراً ، فلا تمنعه وعورة البحث ولا المصاعب والعقبات عن مواصلة العمل ، ولا توقفه ندرة المصادر ، ولا يصرفه عن عمله غموض الوقائع والحقائق التاريخية واختلاطها أو اضطرابها .

ثانياً : على المؤرخ أن يكون اميناً شجاعاً مخلصاً ، لا يكذب ولا ينتحل ، ولا ينافق أصحاب الجاه والسلطان ، ولا يخفى الوقائع والحقائق التي قد لا يعرفها غيره في بعض الأحيان ، فلا ريب أن الكشف عن عيوب

الماضي واخطائه تفيد إلى حد كبير إلى السعي إلى تجنب عوامل الخطأ في الحاضر .

ثالثاً : يلزم للمؤرخ أن تتوافر له ملكة النقد ، فلا يجوز له أن يقبل كل كلام أو يصدق كل وطيقة أو مصدر بغير الدرس والفحص والأستقراء ، وإذا أعوزت المؤرخ ملكة النقد سقطت عنه صفته .

رابعاً : ينبغي علي المؤرخ أن يكون بعيداً عن حب الشهرة والظهور ، والا يحفل بالكسب والأتعاب والجاه والمناصب ، وأن يكرس نفسه لعمله العلمي في صمت وسكون .

خامساً : أن يكون المؤرخ ـ كغيره من رجال العلم ـ ذا عقل واع مرتب منظم ، لكي يستطيع أن يميز بجلاء بين الحوادث ، وينسق أنواع الحقائق ، ويفيد بها في الموضع المناسب ، وحتى يستطيع تحديد العلاقة بين حوادث التاريخ في الزمان والمكان ، ويربط بينها علي اتساق وتوافق .

سادساً : ومن الصفات الأساسية للمورخ عدم التمييز ، فعليه أن يحرر نفسه بقدر المستطاع من الميل أو الإعجاب أو الكراهية لعصر خاص أو لناحية تاريخية معينة .

سابعاً : وينبغي علي المؤرخ أن يكون صاحب احساس وذوق وعاطفة وتسامح وخيال ، بالقدر الذي يتيح له أن يدك آراء الغير ونوازع الآخرين ، وأن آثار الإنسان لتتحدث إلى قلب المؤرخ المجيد فيجد في ثناياها صدى

البشر وصدى نفسه ، تتجلى فيه روح العلم والفن ، ويبعث التاريخ حياً ، ويحيا في التاريخ ، ويعيش للتاريخ . « ١ »

ولعل ذلك يدفعنا إلى الحديث عن مسألة السببية " في التاريخ ، كما يعرض لها " أدوار دكار " في كتابه القيم " ما هو التاريخ " يرى " ادوار كار " أن بعض الناس لا تتحدث عن السبب " في التاريخ ، وإنما عن " التفسير " أو التعليل " أو عن "منطق " أو عن المنطق الداخلي للأحداث أو أنهم ينبذون المنحى السببي " لماذا جرت هذه الأحداث " لصالح المنحى الوظائفي " كيف جرت " رغم أنه يبدو أن هذا السؤال الأخير يتضمن حتماً السؤال حول كيفية حدوثها وبالتالي فإنه يعيدنا إلى مسألة (لماذا ؟) ويميز اناس آخرون بين أنواع مختلفة من الأسباب ـ ميكانيكيه ـ أو بيولوجية أو نفسية ، وفاإلى ذلك ـ ويعتبرون السبب التاريخي مقولة بحد ذاته . « ٢ »

فالمؤرخ ، وعلي غرار الإنسان العادي ، يعتقد أن للأعمال الإنسانية اسباباً يمكن التيقن منها من حيث المبدأ ، ويصبح التاريخ تماماً كالحياة اليومية مستحيلاً إذا لم نثبت هذا الشرط ، أن الوظيفة المحددة للمؤرخ هي أن

---

١ - منهج البحث التاريخي : د . حسن عثمان : ص ١٨ ـ ٢٠ : القاهرة : دار المعارف : ط ٤ : ١٩٧٦م

٢ - ما هو التاريخ : ادواردكار : ص ٩٩ : ترجمة : ماهر كيالي وبيار عقل : بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر : ط ٢ : ١٩٨٠م

يبحث عن تلك الأسباب ، وقد يعتقد البعض أن ذلك يعطيه اهتماماً خاصاً بالجانب المحدد من السلوك الأنساني عير أنه لا ينكر الإرادة الحرة ـ إذا ما استثنينا فرضية أن ليس للأعمال الطوعية سبب ـ وبالمثل فإن المؤرخ لا يهتم كثيراً بالحتمية ، أن المؤرخين ـ علي غرار الناس العاديين ـ يعتقدون أحياناً في استخدام لغة البلاغة ، ويتحدثون عن حدث ما بوصفه " حتمياً " في حين أن كل ما يقصدونه هو أن تضافر العنصر الذي يدفع المرء إلى توقع ذلك الحدث كان قوياً للغاية . « ١ »

ولكن تعقب الوقائع يجب أن يتم في اطار الغاية التي يهدف إلهيا المؤرخ ، وليس لمجرد تتبع الأحداث مع غياب مبدأ الغائية في فهمها وتفسيرها فيقول " ادوارد كار " في هذا الإطار :

وكما أن المؤرخ ينتقي من محيط الوقائع غير المحدودة ، تلك الوقائع ذات المغزى بالنسبة لغرضه ، فإنه لا يستخرج من تعاقبات الأسباب والنتائج المتعددة سوى تلك التي تحمل مغزى تاريخياً ، ويتمثل معيار المغزى التاريخي في قدرته علي إدخالها ضمن النمط الذي يعتمده للتفسير والتعليل العقلانيين ، وذلك ليس لأن علاقة السبب بالنتيجة مختلفة ، وإنمالأن التعاقب نفسه لا يتصل بالموضوع ، أن المؤرخ عاجز عن التعامل مع مثل هذا التعاقب ، ولابد هنا من اهمال تعاقبات الأسباب والنتائج الأخرى بوصفها

١ - المرجع السابق : ص ١٠٧

عارضة ، فهو غير قابل للتعليل العقلاني ، ثم أنه لا يجرز أي معنى بالنسبة للماضي أو الحاضر . « ١ »

ولكن تطوراً قد حدث في مفهوم العلية بالنسبة للعلم وانعكس هذا بدوره علي التاريخ ، أنه لأعتبارات تتعلق بالجدل الفلسفي الذي أراد أن ينأى عنه العلم استبدلت بفكرة العلية فكرة القانون ، واتخذ هذا في اغلب الأمر صيغة رياضية بعيدة كل البعد عن الجدل الفلسفي حول أقسام العلل ، والقول بالضرورة في العلية أو نفيها ، كذلك استدل التاريخ بفكرة العلية لفظة القانون أحياناً ، غير أنه لما كانت هذه ذات طابع رياضي في العلم الطبيعي وهو الأمر الذي لم يبلغه التاريخ بعد ـ وربما لا يبلغه ـ فإن أغلب المؤرخين استعاضوا عن التعليل بالشرح أو التفسير في معظم الأحيان . « ٢ »

وقد وصل الحد بـ " همبل Hempel " إلى امكانية استيعاب التاريخ لفردية الوقائع بدرجة لا تقل ولا تزيد عن الطبيعة والكيمياء ، وأن المؤرخ يستطيع أن يفسر اغتيال القيصر تماماً كما يفسر الجيولوجي زلزالاً ، إذ تبين أن الحادثة لم تقع مصادفة وإنما وفقاً لظروف معينة ، فمنطق التفسير واحد في جوهره في كل من التاريخ والعلوم الطبيعية ، وليست النبوءة في التاريخ

---

١ - نفسه : ص ١١٨

٢ عن : W . Dray . laws and explation in history . ch , 111P . P 58 - 79- في : فلسفة التاريخ : ص ٢٢

تكهنية ولكنها تنبؤ علمي قائم علي افتراض قوانيين عامة لا غنى للمؤرخ عنها ، وان كانت هذه القوانين لا تعني الحتمية ، انما تدع مجالاً للإمكان والأحتمال . « ١ »

وبهذه المحاولات حاول الفكر التاريخي والتاريخ الأقتراب كثيراً من روح العصر في النظرة العلميه لقضايا العلوم الإنسانية من أجل تقديم معرفه تتميز بالفاعلية ، وتقدم للانسان خطوات علي طريق الوعي بالتاريخ الذي هو في حقيقته وعي بحضارة الانسان .

---

١ - Carl hempel وأهم كتبه المنهجية في التاريخ " وظيفة القوانين العامةفي التاريخ " وهناك غيرهما " باتريك جاردنز " Patrick Gardiner في كتابه " طبيعة التفسير التاريخي " ، " وليم دراي " william Dray في كتابه القوانين والتفسيرات في التاريخ " .
أنظر : في فلسفة التاريخ : ص ٢٤ ـ ٢٥ .

الفصل الثاني
عصر المقريزي

يحسن بنا قبل الحديث عن منهج القريزي في الكتابة التاريخية ـ وهو جزء لا يتجزأ من نظرته حول التاريخ ـ أن نلج في اطلالة سريعة ، واقع البيئة المصرية في عصر سلاطين المماليك ، حتى نتعرف علي طبيعةالمناخ الأجتماعي والبيئي الذي كان من العوامل الأساسية في تكوين منهاجية المقريزي وصياغته ورؤيته الأجتماعية والأقتصادية لتاريخ مصر في تلك الفترة التي تفاعل معها المقريزي بصدق وموضوعية ، وهذا يؤكد صدق المقولة الشهيرة " كل مفكر ابن بيئته وربيب زمانه "

والواقع أن العلاقة بين التاريخ والأجتماع قوية وثيقة ، حتى أن جزءاً كبيراً مما كتبه العلماء في الأجتماع ليس إلا فلسفة للتاريخ في صورة اجتماعية . « ١ »

فإذا كانت تصرفات الأفراد على اختلاف مراكزهم ـ تشغل ركناً هاماً من أركان التاريخ ، فإن تصرفات الأفراد علي إختلاف مراكزهم تشغل ركناً هاماً من أركان التاريخ ، كما أن تصرفات الفرد وأراءه وأفكاره ومشاعره تؤثر فيها وتوجهها النظم والتقاليد والعادات السائدة في ذلك المجتمع والتي تحيط بالفرد كما يحيط الغلاف الهوائي بالأرض . « ٢ »

١ - Gillianges (F . H) the principles of sociology . , P . 33 . Londan . 1924

٢ - Idem .P.3

وهكذا نجد أنه كلما تقدم منهج البحث التاريخي اتسعت دائرة الفقه ، وأخذ يقترب من علم الأجتماع لتزداد الروابط بين العلمين . « ١ »

ودراسة الحياة الإجتماعية تختلف إلى حد كبير عند دراسة الأحداث السياسية لأن الأحداث السياسيه مازجها التغيير والتبديل وعدم الإستقرار ، في حين تظل الحياة الإجتماعية علي شئ من الثبات وعدم التغيير السريع أو بطئه الشديد .

وفي النصف الأول من القرن التاسع الهجري - الخامس عشر الميلادي - هبط مستوى الحكم في مصر والشام إل« درك سحيق ، وكانت دولة المماليك الأولى المعروفة بدولة المماليك البحرية قد انتشر نظامها وضاع رونقها ، وتوالى على عرشها في مصر والشام سلاطين هم إلى الأطفال أقرب منهم إلى الرجال ، كلهم من أحفاد الناصر ابن قلاوون ، ومهما قلبت في صفحات تاريخ مصر والشام في ذلك العصر فإنك غير واجد شيئاً يسر القلب ويستحق التسجيل . « ٢ »

ولا يخفى علي الباحث أن هناك عدة عوامل أدت إلى طبع الحياة الإجتماعية في مصر على عصر المماليك بطبع خاص مميز ، وأول هذه العوامل طبقة المماليك بالذات وهي الطبقة التي دخلت على المجتمع

١ - Idem . P . 38

٢ - احاديث منتصف الليل : د . حسين مؤنس : مرجع سابق : ص ٩٩

المصري وحكمت المصريين حكماً مستقلاً مدة تزيد عن قرنين ونصف من الزمان ، والمعروف أن المماليك لم يحاولوا ـ عادة ـ الأختلاط بالمصريين ، ولم يتأثروا بنظمهم وعوائدهم إلا في حالات قليلة وبقسط محدود ، وقد ساعد على هذه العزلة وترتب عليها أن طبقة المماليك أكثرت من شراء الرقيق حتى تكون لهم عصبية يعتمدون عليها في حكم البلاد ، ويرتبط بالمماليك الوافدين الذين هاجر معظمهم من بلاد المغول إلى مصر مستأمنين احراراً لا أجلاباً مملوكين .

أما العامل الثاني في توجية المجتمع المصري في عصر المماليك فهو الحروب الصليبية التي كان من أهم نتائجها نمو العلاقات التجارية بين الشرق والغرب ، وعلي الرغم من التعلميات المشددة التي أصدرها " بابوات " روما إلى الشعوب المسيحية لمنع التجارة مع المسلمين بعد استيلاء المسلمين لعي عكا عام ١٢٩١ م فقد استمرت التجارة بين الطرفين في نمو وإزدياد لما حققته للفريقين من ثروة طائلة . « ١ »

وفي ذلك يقول المقريزي " واستغل سلاطين المماليك بمصر ذلك المورد الخصب فشغلوا آموالهم في التجارة ، واحتكروا بعض التوابل ليبيعونها للفرنج دون التجار المواطنين . " « ٢ »

---

١ - المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك : د . سعيد عبد الفتاح عاشور: ص٣ : النهضة العربية : ط١ : ١٩٦٢م

٢ - السلوك : المقريزي : جـ٤ : ص ٥٩٢

وهكذا جمعوا ثروات طائلة ، أفاضت كتب التاريخ المعاصرة في وصفها ووصف مظاهرها ، وظهر أثر هذه الثروة واضحاً جلياً في مختلف مظاهر الحياة الإجتماعية في ذلك العصر من احتفلات فخمة واسمطه فاخرة وملابس ثمينة وحلي عديدة ، كذلك تنافس عظماء الدولة من وزراء وأمراء وكتاب وتجار في تشييد القصور والتفنن في زخرفها والتأنق في تأثيثها حتى غدت مضرب الأمثال . « ١ »

وفي عصر سلاطين المماليك ظهرت كذلك آثار النظم الاقطاعية الغربية التي من غرب أوربا إلى الشرق عن طريق الحروب الصليبية. « ٢ »

ولابن خلدون تقسيم معروف ، نصه أن ملك مصر في عصر المماليك " أنماهو سلطان ورعية " أي أن هناك طبقة حاكمة مسيطرة تمثل السادة من المماليك وطبقة من المحكومين المغلوبين علي أمرهم يمثلون فئات اهل مصر جميعاً " . « ٣ »

واتفق مع ابن خلدون في رأيه من المؤرخين المحدثين لين بول ، الذي قسم سكان مصر في عصر سلاطين المماليك ـ وعرفها بأنها اقلية عسكرية Military oligarchy

---

١ - المواعظ والأعتبار : المقريزي : ج٢ : ص ١٥٥
٢ - المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك : مرجع سابق : ص ٥
٣ - مقدمةابن خلدون : ص ١٨٣

والثانية بقية فئات الشعب الخاضعة ، وعليها فلاحةالأرض ، ودفع الضرائب ، وقال أن الطبقة الثانية عاشت محرومه من كل نفوز في شئون الحكم ، سوى بعض الوظائف ذات الصبغة الدينية . « ١ »

ومع ذلك ـ كما يقول الدكتور حسين مؤنس ـ فقد كان هدا عصر المؤرخين الكبار ،عصر القمم التي انتهى إليها تطور علم التاريخ عند العرب في عصوره المتأخرة ، فهذا هو عصر " تقي الدين المقريزي " و " جمال الدين العيني " و " شمس الدين السخاوي " ، " ابن حجر العسقلاني " ومن إليهم أمر التجديد في صنعة التاريخ عند المسلمين في العصور الوسطى ٠ « ٢ »

---

١ - المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك : ص ٥ -٦
٢ - احاديث منصف الليل : مرجع سابق : ص ٩٩

الفصل الثالث
نشأة المقريزي

من المتعارف عليه في المصادر المعاصرة أن اسرة المقريزي بعلبكيه الأصل ، تنسب إلى حارة " المقارزه " إحدى الحارات القديمة في مينة بعلبك ، وقد نزح والده علي والي مصر ، وسكن القاهرة ، حيث انجب ابنه أحمد ، وذكر ابن حجر أنه رأى بخط المقريزي ما يدل علي أن ولادته كانت في سنةست وستين وسبعمائة هـ (١٣٦٤ ـ ١٣٦٥ م) .

وقد نشأ أحمد بن علي المقريزي نشأة طيبة ، في بيئة حضارية لها طابعها الذي يختلف كثيراً عن البيئة التي عاش فيها أجداده ، فإذا كان أجداده قد عاشوافي بعلبك ، تلك البلدة الراسخة فوق جبال الشام ، فإن شهرة بعلبك في تلك العصور تتجاوز الدور الذي لعبته في الصراع بين حكام المسلمين بعضهم وبعض من ناحية ، أو بينهم وبين الصليبين من ناحية أخرى ، وربما كان لها دور في حوادث زحف التتار على بلاد الشام من ناحية ثالثة ، وبالتالي فإن بعلبك ـ بحكم موقعها ـ كانت في كثير من أدوار تاريخها ميداناً للصراع بين القوى المتنافسة ، أو معبراً للتجارة ، وربما مأوى لبعض الفرق الدينية ، التي تشكل أقليات متناثرة في بلاد الشام ، ولكنها في جميع الحالات لم تكن مركزاً لحركة علمية مزدهرة ، ولم نسمع عن احد من شيوخ العلم أه نزح إليها واستقر فيها ، هذا كله بالإضافة إلي جوها

الشديد البرودة بشبب ارتفاعها ، مما جعل مكانها غير مغر بالنزوح إليه والإقامة فيه .

أما المؤرخ أحمد بن علي المقريزي ، فيعتز وبفخر بأنه ولد بين جنبات القاهرة ، وفي حي من أكثر أحيائها صخباً وامتلاء بالحياة والنشاط الإجتماعي والأقتصادي المتنوع ، وقد ذكر المقريزي عن سوق حارة برجوان التي ولد ونشأ فيها أنه " أعظم اسواق القاهرة " ما برحنا ونحن شباب نفاخر بحارة برجوان سكان جميع حارات القاهرة . « ١ »

وكانت القاهرة مقصد كل معسر أو طموح ، وصفها الرحالة المعاصر ابن بطوطه بأنها " أم البلاد المتناهية في كثرة العمارة ، المتباهية في الحسن والنضارة ، ومجمع الوارد والصادر ، ومحط الضعيف والقادر " ٠ « ٢ »

ومن المرجع أن علياً المقريزي ـ والد المورخ تقي الدين أحمد ـ إنمانزح من بعلبك إلى القاهرة ، يلتمس سعة العيش ، وأنه عندما استقر فيها كان يعاني ضيق ذات اليد ، بدليل أن جد تقي الدين أحمد لأمه ـ وهو ابن الصايغ الحنفي ـ هو الذي كفل تعليمه واشرف علي تنشته ، وفق مذهبه ، وهو المذهب الحنفي . « ٣ »

---

١ - المواعظ والأعتبار : المقريزي : جـ٢ : ص ٩٥ : بولاق
٢ - رحلة ابن بطوطه : ج١ ، ص ٦٧ (طبعه باريس ١٩٨٠. م)
٣ - الضوء اللامع : السخاوي : جـ٢ : ص ٢١ : ترجمة ٦٦

وتتلمذ المقريزي علي مجموعة من كبار علماء وشيوخ عصره الذين عجبت بهم القاهرة ، بالإضافة إلى أن تنقلاته خارج القارهرة ومصر والتي التقى خلالها بعديد من العلماء ، وفي ترجمة السخاوي للمقريزي يرى :

أن نشأته بالقاهرة نشأة حسنة ، فحفظ القرآن وسمع جده لأمه الشمس ين الصايغ الحنفي ، والرهان الآمدي ، والعز بن الكويك ، والنجمع بن رزين ، والشمس بن الخشاب ، والتنوخي ، وابن أبي شيخة ، وابن ابي الجد البلقيني ، والعراقي ، والهيثمي ، والفرسيسي وغيرهم ، « ١ »

والمقريزي أدى فريضة الحج ، فسمع بمكة من النشاوري والأميوطي ، والشمس بن سكر ، وأبي الفضل النويري القاضي ، وسعد الدين الأسفراييني ، وأبي العباس بن عبد المعطي ، واجاز له الأسنوي والأذرعي ، وأبو البقاء السبكي ، وعلي بن يوسف الزرندي ، وآخرين ، من الشام الحافظ أبو بكر وأبو العباس بن العز ، وناصر الدين محمد بن محمد بن داود . « ٢ »

ولم يعش المقريزي في المرحلة الأولى من حياته بعيداً عن جو الوظائف العامة ، وكان أول ما وليه من هذه الوظائف وظيفة موقع ـ أي كاتب ـ

---

١ - المرجع السابق : نفس الترجمة

٢ - نفسه

بديوان الإنشاء بالقلعة ، وهي وظيفة لها أهميتها في ذلك العصر لأنه لا يليها إلا من يتمتع بمواصفات معينة ومستوى راق من العلم والأسلوب . « ١ »

ثم عين المقريزي بعد ذلك نائباً من نواب الحكم - أي قاضياً - عند قاضي القضاة الشافعي ، وبعد ذلك تولى الخطابة بجامع عمرو ، ثم بمدرسة السلطان حسن فإماماً لجامع الحاكم مع نظر هذا الجامع ، ثم مدرساً للحديث بالمدرسة المؤيدية ، ويبدو أن المقريزي حظى بمكانة خاصة عند السلطان الظاهر برقرق وابنه السلطان فرج بن برقوق فعينه السلطان برقوق في وظيفة محتسب القاهرة والوجه البحري سنة أحدى وثمانمائة هـ ، فتولاها وتنحى عنها أكثر من مرة ، وفي تلك الأثناء تزوج المقريزي وأنجب أبنته التي ماتت بالطاعون الذي إجتاح مصر سنة ٨٠٦ هـ وقد دخل المقريزي دمشق مع الناصر فرج بن برقوق في سنة عشر وثمانمائة وعاد معه إلى مصر ، وعرض عليه قضاؤها عدة مرات فأبى ، ويبدو أنه تردد علي دمشق بعد ذلك أكثر من مرة فتولى فيها نظر وقف القلانس والبيمارستان النوري الذي كان من شروط وقفه أن يتولى نظره قاضي دمشق الشافعي ، ولذا عينه السلطان فرج بن برقوق نائباً للحكم بدمشق ، أي قاضياً بها ، في دمشق

١ - المواعظ والأعتبار : المقريزي : جـ٢ : ص ٢٢٥ : بولاق

تولى المقريزي أيضاً تدريس الحديث بالمدرستين الأشرفيه والاقبالية ولكنه لم يلبث أن ضاق ذرعاً بالمناصب ، وغلبت عليه طبيعته الهادئة ، فأثر التفرغ للإشتغال بالعلم ولذا هجر دمشق بعد أن أقام بها نحواً « من عشر سنوات ، وعاد إلى مصر ، حيث اشتهر به ذكره وبعد فيه صيته » « ١ »

وعن حياته الوظيفية يقول فيه السخاوي " وحمدت سيرته في مباشراته " « ٢ »

وفي هذه المرة لم يترك المقريزي القاهرة إلا لفترة محدودة ـ تقارب خمس سنوات ـ اتجه فيها إلى مكة حيث أدى فريضة الحج ، مع اشتغاله بالتدريس والتأليف في تلك الأثناء .

وقد أستهل المقريزي نشاطه في التأليف في وضع موسوعته الكبرى المسماه " المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار " وهي الموسوعة التي نسبت إليه وعرفت باسم خطط المقريزي ، وقد بدأ في كتابة خططه حوالى سنة ٨٢٠هـ واستمر في كتابتها حتى قبل وفاته بعامين أي حتى سنة ٨٤٣هـ ، وفي تلك الأثناء لم يكن المقريزي منقطعاً انقطاعاً تاماً لتأليف هذا الكتاب وإنما دون كتباً أخرى عديدة ، ويرجع طول المدة التي استغرقها تأليف كتاب " المواعظ والإعتبار " إلى أن هذا الكتاب ليس من كتب التاريخ العادية التي

١ - السخاوي : ترجمة : ٦٦ حول المقريزي
٢ - نفسه :ترجمة : ٦٦ حول المقريزي

تقتصر على سواد الحوليات واحداث السنين سنة بعد أخرى ، وإنماهو بمثابة موسوعة عمرانية جغرافية تاريخية اقتصادية سياسية فنية ، تناول فيها المقريزي بلاد مصر ، فعالج مدنها وآثارها ومعالمها الرئيسية واصفاً كلا منها وصفاً دقيقاً متتبعاً تاريخ كل أثر من العصور القديمة ـ الوثنيةأو القبطية إلى العصور الإسلامية ، حتى أيامه ، وخطورة هذه الموسوعة تتضح عندما يتحدث فيها المقريزي عن القاهرة الكبرى أي القاهرة المعزية وما يرتبط بها من فسطاط وعسكر وقطائع ـ ليدرسها دراسة مسهبة مستفيضة ، جعلت من خططه مصدراً له أهميته البالغة بين مصادر تاريخ مصر في العصور الوسطى ، وبخاصة في عصر سلاطين المماليك . « ١ »

ونحاول الآن أن نعرض بصورة موجزة لمؤلفات المقريزي لالقاء الضوء على جهوده كمؤرخ اتسم انتاجه بالغزارة والتنوع .

١ – طبع كتاب " المواعظ والأعبار " للمقريزي طبعيتن : الأولى ـ وهي المفضلة ـ طبعة بولاق ١٢٧٠هـ في مجلدين كبيرين ، والثانية طبعةاهليةفي أربعة أجزاء (القاهرة) ١٩٠٧م .

الفصل الرابع
مؤلفات المقريزي

استهل المقريزي نظامه في التأليف بالشروع في وضع موسوعة كبرى أسماها " المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار " وهي الموسوعة التي نسبت إليه ، وعرفت باسم خطط المقريزي ، وقد بدأ المقريزي في كتابة خططه حوالي ٨٢٠ هـ ، واستمر في كتابها حتى قبل وفاته بعامين أي حتى ٨٤٣هـ ، وفي تلك الأثناء لم يكن المقريزي منقطعاً انقطاعاً تاماً لتأليف هذا الكتاب ، وإنما دون كتباً اخرى عديدة منها الكبير ومنها الصغير .

كتب في التاريخ العام : " الخبر عن البشر " وكتاب " الدرر المضيئة في تاريخ الدول الإسلامية " وكتاب " امتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأحوال والحفدة والمتاع " وكتاب " المقضي الكبير " من تراجم أهل مصر والوافدين عليها وكتاب " درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة "

حول تاريخ مصر السياسي " الف ثلاثة كتب تغطى منذ الفتح العربي حتى أيامه : الأول : " عقد جواهر الأسقاط في تاريخ مدينة الفسطاط " ويعالج تاريخ مصر الإسلامية حتى العصر الفاطمي ، وكتابه " اتعاظ الحنفا بذكر الأئمة الفاطميين الخلفا " وقد عالج فيه مصر الفاطمية ، أما الثالث فهو كتاب السلوك لمعرفة دول المماليك " وقد أرخ فيه المقريزي لمصر منط بداية الدولة الأيوبية حتى قبيل وفاته سنة ٨٤٥هـ .

وهذه الكتب الثلاثة الأخيرة التي خصصها المقريزي لعلاج تاريخ مصر السياسي في العصور الإسلامية ، يكملها الكتاب الذي أفرده لعلاج تاريخ مصر العمراني وهو كتاب " المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار " وهو موسوعة تاريخية سياسية اقتصادية اجتماعية ثقافية بكل معاني الكلمة .

كتب تخصصية صغيرة تعنى بمشكلة معينة في التاريخ الإسلامي

مثل : " النزاع والتخاصم فميا بين بني أمية وبني هاشم وكتاب " الإلمام بأخبار من بارض الحبشة من ملوك الإسلام" وكذلك كتاب " الطرق الغربية من أخبار حضرموت العجيبة " وكتاب " الذهب المسبوك بذكر من حج من الخلفاء والملوك " وكتاب " تراجم ملوك الغرب "

القاء الضوء على بعض الأوضاع المعاصرة : " البيان والأعراب بمن نزل لأرض مصر من الأعراب وهو يعرف بالقبائل العربية المنتشره في مصر علي أيام المؤلف .

جوانب من العوم البحتة : " المقاصد السنية لمعرفة الأجسام المعدنية " وكتاب " نحل ابر النحل " يتعرض بالشرح فيه لكل ما يتعلق بالنحل .

ونتوقف الآن قليلاً ـ عند كتاب " اغاثة الأمة بكشف الأمة " للمقريزي لما له من علاقة وثيقة بميدان الفكر التاريخي وفلسفة التاريخ .

أهمية كتاب إغاثة الأمة بكشف الغمة :

يمتاز هذا الكتاب بطرائف موضوعاته ، كما يدل على تفوق مؤلفه ، أي تناول تاريخ المجاعات التي نزلت بمصر منذ أقدم العصور إلى سنة ٨٠٨هـ ، وهي السنة التي الف فيها ، المقريزي في هذا الكتيب فيما نعلم - هو المؤرخ المصري الوحيد الذي تعرض بالبحث لتلك الناحية الأقتصادية والإجتماعية من تاريخ مصر ، فهو في تدوينه لأخبار المجاعات ، يحاول أن يتقصى اسبابها ، ويقترح العلاج الإقتصادي الصحيح لدرئها ودوائها ، كما أنه يتناول طبقات المجتمع المصري في عهده بالتقسيم والتصنيف ، ويصف كل طبقة من طيقاته في شئ من التفصيل . « ١ »

والمجاعة الشديدة التي عاصرها (٧٩٦ـ٨٠٨ هـ) والتي فقد فيها أبنته الوحيده بسبب الطاعون عام ٨٠٦هـ ، يبدو أن هذه المحنة التي أبتلى بها المقريزي جعلته يتحمس لتأليف الكتاب المذكور . ، حتى أنه ماكاد ينكب علي تأليفه عقب وفاة وحيدته حتى فرغ منه قرابة العام ، عندئذ يقول عن نفسه أنه عكف على " ترتيب هذه المقالة وتهذيبها في ليلة واحدة من ليالي المحرم ثمان وثمانمائة "

---

١ - اغاثة الأمة بكشف الغمة : المقريزي : تصدير الكتاب : جـ : نشر وتحقيق : محمود مصطفى زيادة ،وجمال الدين الشيال :القاهرة : مطبعة لجنة التأليف : ١٣٥٩هـ ـ ١٩٤٠م

ويعد كتابه هذا ظاهرة فكرية لها أهميتها وخطورتها في عصر سلاطين المماليك . « ١ »

وفي تحليل لأهمية كتاب " أغاثة الأمة " يرى صاحبها : في هذا الكتاب عرض لطيف للأسباب التي كان أرباب الحكم في مصر يطبقونها لتخفيف آلام المجاعات وأمراضها على الشعب المصري ، غير أنه مما يدعو إلى الغرابة أنه برغم تتابع المجاعات ، وبرغم أن الكتاب يفرد لتاريخها في مصر ، فإن المقريزي لم يذكر سوى حادثتين أثنتين يمكن الإستدلال منهما علي يقظة الشعب وثورته علي؛ ماكان هناك من اسباب اقتصادية لحدوث هذه المجاعات ، ولم يقنع المقريزيز في هذا الكتاب بسرد الأحداث وإيراد اخبار المجاعات وحسب ، بل جرؤ فناقش الأسباب التي أدت إلى حدوث المجاعة في عصره ، وحاول أن يقترح الوسائل لعلاجها والكتاب رغم صغر حجمه ، حافل بمعلومات قيمة كثيرة لاتزال توحي بدراسات اجتماعية واقتصادية ،وقد ترجمه إلى اللغة الفرنسية المؤرخ الفرنسي الكبير " جاستون فييت "« ٢ »

---

١ - اضواء جديدة علي المؤرخ المقريزي : د . سعيد عاشور : عالم الفكر : ص ١٧٧ : م١٤ ع٢ : ١٩٨٣

٢ - دراسات عن المقريزي : تأليف مجموعة من الأساتذة : ص ٢٩ صفحات بقلم د . جمال الدين الشيال : القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب

ويقول الأستاذ الدكتور حسين مؤنس عن الكتاب :

أن عنوان " الإغاثة " فيه سخرية ومرارة › فإن الغمة التي يذكرها المقريزي في عنوان كتابه هي حكم المماليك نفسه ، فهو في نظره غمة وبلوى ، حيث يصرح بذلك في كتابه . « ١ »

ويحسن بنا قبل الدخول في منهج المقريزي وفلسفته حول التاريخ أن نعرض لقضية المنهج التاريخي على سبيل المثال كمدخل ومقدمه لفلسفة التاريخ عند المقريزي .

---

١ - احاديث منتصف الليل : د . حسين مؤنس : مرجع سابق : ص ١٠٢

الفصل الخامس
قضية المنهج في فلسفة التاريخ
أ - مدخل فلسفي

تكتسب مسألة المنهج لاسيما في حقل الدراسات التاريخية أهمية خاصةفي ضوء ما يجابهها من تحول في المفاهيم ، وتطور في الإتجاهات ، لم تعد في ظلها ، قراءة التاريخ وفقاً للنظرة التقليدية ، تلك التي تستسلم للنص وتذعن لظواهر الأشياء ، أو تلك التي تنطلق من أفكار مسبقة ، ونتائج شبه جاهزة ، مما يجنح بها عن دائرة الضوء المقاربة للحقائق التاريخية

إن ثمة اتجاهين في الواقع لدى المؤرخين العرب ، أحداهما سردى وهو الأكثر شيوعاً ، والثاني تحليلي ينطلق من عدة دوائر في تفسيره للقضايا التاريخية منها ما هو مبني علي قاعدة رؤية سياسية ، ومنها ما يعتمد بعض الدراسات الإجتماعية أو الإقتصادية أو " الايديولوجية " وقد بلغت بعض الدراسات المعبرة عن الإتجاهات الثاني درجة من التماسك في المنهج والوضوح في الهدف ، ما جعلها تشكل مدخلاً إلى قراءة تاريخية موضوعية .

والمنهج في النتيجة حالة متكاملة ، تلتحم فيها الثقافة مع السياسة ، ويتنقل في ظلها المؤرخ من هامش الدور إلى مضمونه والإنخراط فيه ، دون أن يعني ذلك الخوض في الماضي وعدم التطلع إلى المستقبل .

ومنهج البحث التاريخي هو المراحل التي يسير خلالها الباحث حتى يبلغ الحقيقة التاريخية ـ بقدر المستطاع ـ ويقدمها إلى المختصين بخاصة والقراء بعامة ـ وتلخص هذه المراحل في تزويد الباحث نفسه بالثقافة اللازمة له ، ثم اختيار موضوع البحث ، وجمع الأصول والمصادر ، واثبات صحتها ، وتعيين شخصية المؤلف وتحديد زمان التدوين ومكانه ، وتحري نصوص الأصول وتحديد العلاقة بينها ، ونقدها نقداً باطنياً إيجابياً وسلبياً ، وإثبات الحقائق التاريخية ، وتنظيمها وتركيبها ، والإجتهاد فيها ، وتعليلها ، وإنشاء الصيغة التاريخية ، ثم عرضها عرضاً تاريخياً معقولاً . « ١ »

ولابد أن نؤكد علي نسبية الحقائق التي يصل إليها المؤرخ ، وهذه الحقائق تتحدد قيمتها من الصحة بمقدار نسبة الصدق وتوخي المؤرخ للموضوعية والتجرد عن الهوى وغير ذلك كما سنعرض لهذه الشروط وأهميتها والتي تحدد اسهام المؤرخ في ميدان الكتابة التاريخية

ونحاول الآن أن نقف عند واحد من رموز الفكر التاريخي وهو " ادواردكار " في مؤلفه العميق "ما هو التاريخ " في معالجته لمسألة موضوعية المؤرخ .

---

١ - منهج البحث التاريخي : مرجع سابق : ص ٢٠.

يقول كار " : إن حقائق التاريخ لا تصل إلينا مطلقاً بصورة " بحته " لأنها لا توجد ولا يمكن أن توجد بصورة بحتة ، أنها دائماً تنعكس من خلال ذهن المدون ، يترتب على ذلك أننا إذا ماتناولنا عملاً تاريخياً فينبغي ألا يكون إهتمامنا الأول منصباً على الحقائق التي يتضمنها وإنما على المؤرخ الذي كتبها . « ١ »

ولما كان التفسير يلعب دوراً اساسياً في ترسيخ حقائق التاريخ ، وبما أنه لا يوجد تفسير موجود موضوعياً بصورة كاملة ، فإن التفسيرات هي عملياً مثل بعضها البعض ، وأن حقائق التاريخ من حيث المبدأ ليست عرضة للتفسير الموضوعي . « ٢ »

والمؤرخ الأكثر وعياً بوضعه الخاص هو أيضاً أكثر قدرة على تجاوزه وأكثر قدرة عى تقديم الطبيعة الجوهرية للفروقات بين مجتمعه الخاص ونظرته الخاصة وبين الحقبات والبلدان لأخرى ، ومن المؤرخ الذي يجنح بصوت مرتفع بأنه مجرد فرد وليس ظاهرة اجتماعية ، ويبدو أن قدرة المرء على الإرتفاع فوق وضعه الإجتماعي والتاريخي مشروطة بحساسيته التي يدرك بها مدى تورطه في هذا الوضع . «٣»

---

١ - ما هو التاريخ :مرجع سابق : ص ٢٣
٢ - المرجع السابق : ص ٢٩
٣ - نفسه : ص ٤٧

فالعملية المتبادلة في التفاعل بين المؤرخ وحقائقه وما أسميته بالحوار بين الحاضر والماضي وهو ليس حواراً بين أفراد مجردين وأفراد منعزلين ، ولكن بين مجتمع اليوم ومجتمع الأمس ، التاريخ هو سجل لما يراه عصر من العصور يستحق التاريخ في عصرآخر ، الماضي مفهوم لنا علي ضوء الحاضر ان تمكين الإنسان من فهم مجتمع الماضي وزيادةسيطرته على مجتمع الحاضر هي المهمة المزدوجة للتاريخ . « ١ »

ويوافق الأستاذ الدكتور علي عبد المعطي على الجانب الأفتراضي في منهاجية المؤرخ بقوله : ان النهج الواقعي للتاريخ يرتكز على افتراض عام يغلف كل افكارنا عن العالم ، وبدون هذا الإفتراض يبقى هدا النهج مربكاً أو محيراً ، وهذا الأفتراض هو أن الحاضر بكون نتاج الماضي ، وأن كل حالة من الحالات التي تحدث في لحظة خاصة سابقة عليها .

وها هنا يقوم السؤال التالي : كيف يمكن أن نختار سوابق أي موقف من وقائع الماضي التي لا حصر لها؟ ان جزءاً من الإجابة على هذا السؤال يكمن في عمل الذاكرة الأنتقائي وفي الأحكام التي نصنعها طبقاً لمقولات المعني ، كما أن الاهتمامات والمشاكل التي تواجه الباحث أو تواجه جيله يمكن أن تلعب دورها أيضاً ، علاوة على " أن العلوم النسقية تمدنا بالدليل علي أهمية ارتباطات معينة . «٢ »

١ - نفسه : ص ٥٩ ـ ٦٠.

٢ - رؤية معاصرة في علم المناهج : ـ أ . د علي عبد المعطي : ص ٤٤٣ : الأسكندرية : دار المعرفة الجامعية : ١٩٨٤م

وليس معنى ذلك أن مهمة المؤرخ اصدار احكام الزيغ والضلال على الماضي أو أن يجعل من نفسة واعظاً عقائدياً ، لان ذلك لن يؤدي إلا إلى احكام خاطئة إذا قيست بعقلية ذلك العصر الذي يدرسه ، أن لكل عصر تاريخي بل لكل حقبة كما أن لكل حضارة شخصيتها وقيمها ، وليس من شأن المؤرخ أن ينظر إلى الماضي من خلال معايير الحاضر ، لأن الانسانية ليست شكلاً ولا طابعاً ولا نمطاً واحداً ، ومن ثم ينبغي التعبير عن كل عصر بتعبيرات خاصة به لأن لكل عصر كما أن لكل أمة طابعاً فريداً لا يتكرر ، فليست الحضارة المصرية القديمة كالحضارة الصينية أو اليونانية أو الرومانية ، وإنما يتعاطف مع العصر الذي يدرسه ، أما تجاوز ظروف الزمان ، والمكان واصدار احكام مطلقة فهذا سوء فهم للتاريخ ، فليس شكسبير هو سوفوكليس ولا ملتون هو هوميروس . « ١ »

وحول علاقة موضوعية المؤرخ أمام التغيرات المستمرة لحركة التاريخ يقول " كولنجوود " في كتابه الرائع " فكرة التاريخ The Idea of history . أن المقولات الأساسية التي تميز الزمان التاريخي إذن هي التنوع والتغير والديمومة ولا بد أن تكون للمؤرخ حاسة تاريخية كي يدرك ذلك ، ومن ثم يتجنب النظر إلى الماضي باعتباره صورة مكررة أو مماثلة للحاضر ، تتضح

---

١ - Encyclobedia of philosophy vol . P . P . 486 - 499 by . patrick :
عن : في فلسفة التاريخ : ص ٢٨

هذه الحاسة الخلقية حين يعالج مثلاً مسميات مثل الدولــــة الرومانية : قنصل - نبيل أو شريف - من العامة - رقيق - عبد ، أنه لا يصح أن تفهم هذه المسميات كما نفهما الآن فذلك مظهر للتشويش التاريخي وذلك ما وقع فيه مؤرخو عصر التنوير حين أصدوروا على الماضي احكاماً هي من معايير حاضرهم .

ولكن كيف يتجنب المؤرخ مثل هذا الخطأ التاريخي ، يجيب " كولنجوورد " أن على المورخ ينبغي أن يعيش في موضوعه أو أن يعيش الموضوع في ذاته ، فالدراسة التاريخية تجربة حدسية مباشرة تجعل شخصيات الماض جزءاً من التجربة الحاضرة للمؤرخ الذي يدرسها ، أنه ينبغي أن يكون موضوع المؤرخ موضوع أندماجي ذاتي . « ١ »

وتتواصل الاراء حول " الذاتية في المنهج التاريخي "

ان التاريخ - كما يقول كروس - « ٢ » معرفة ذاتية لذهن ص ، ومع أن وقائعه ماضية فإنها يجب أن تبقى حية في ذهن المؤرخ ، ولا يعترض علي ذلك بكون الواقعة غير ماثلة أمامه لان الدليل عليها قائماً " هنا " و " والآن ، فليس موضوع التاريخ هو الماضي ولكنه الماضي الذي نملك عليه دليلاً

---

١ - وللكتاب ترجمة : فكرة التاريخ . Colingwood : the Idea of history : P. 172
ترجمة : محمد بكير خليل : نشر لجنة التأليف والترجمةوالنشر : ١٩٦٨ ط١ :
وانظر : في فلسفة التاريخ : ص ٣٣
٢ - في فلسفة التاريخ : ص ٣٤

تاريخياً والذي يصبح بعد ذلك حياص في ذهن مؤرخ يعيش في الحاضر ، وهكذا يصبح التاريخ حدساً وليس مجرد فكر ، حدساً يحيى فيه الماضي في المؤرخ الحاضر ويبلغ من ذاته درجة الوعي لا مجرد الفهم الظاهري ، ان التاريخ الذي يقف عند مجرد الوصف أو السرد جسم بلا روح فإن نفخ المؤرخ فيه من روحه فقد بعث الحياة في الماضي الميت ومن ثم فإن كل التاريخ تاريخ معاصر .

فهل يعتبر تمثل افكار الآخرين وتجاربهم يقف عند مجرد فهم المواقف والأفكار والسلوك ؟

أن هذه العملية الفكرية تصبح جزءاً من ذات المؤرخ ، بذلك يبعث الروح في رفات الماضي ، أنه من الخطأ الظن أن التاريخ مجرد دراسة لما وقع ، لأن الواقع الفعلي يحدد فكر لابد أن يتمثله المؤرخ ومن ثم فكل التاريخ تاريخ فكر . «٣»

وبذلك نخلص إلى تحديد لأهم المعاني التي حددت أكير تيارين متصارعين حول منهجية علم التاريخ حيث بدأت تتحدد مناهج كل علم حتى وقتنا الحاضر .

ولا يعني هذا صراعاً فكرياً بين المنهجين بقدر ما نحن في حاجة إلى كلاهما لفهم حركة التاريخ ومنحنياته في اطار التجربة الإنسانية بكل ما تحمل من زخم وفعاليه .

فحاجتنا إل ربط التاريخ بروح العصر العلمية والتجريبية ذات أهمية لا يمكن انكارها ، لأن العلوم الإنسانية في حاجة إلى مزيد من الوضوح في نتائجها وفي حاجة إلى الموضوعية في نتائجها وفي حاجة إلي الموضوعية التي تقرب الحقيقة التاريخية .

وفق قدر كبير من النزعة العلمية - إلى ذهن القارئ والمثقف الذي لاشك أنه يحيا وسط الواقع المعاصر ، واقع الآلية والتقنية والتجربةوبالتالي يؤدي اقتراب التاريخ من النزعةالعلمية دوره الإيجابي في مجال العلوم الإنسانية ومحاولاتها المنهجية للتسلح بالموضوعية .

كذلك لا نستطيع أن ننكر الدور الذي تقوم به فردية المؤرخ في فهم وصياغة أحداث التاريخ ووقائعه ، ذلك لأن ذاتية المؤرخ لا يمكن إنكارها في الكتابة التاريخية ، ولعل ذلك ظهر بوضوح من الفقرات السابقة التي عرضنا لها والتي تبرز وتؤكد علي استحالة الموضوعيةالمطلقة من التاريخ ، وذلك لأن رصد الواقعة لا يمكن أن ينفصل عن مشاعر وشخصية وبيئة المؤرخ إلى غير ذلك من الأمور الذاتية التي تصيغ حقيقة الخطاب التاريخي ، ولأن المؤرخ هو نهاية الأمر لا يمكن أن يتنكر لأنسانيته ، كما أننا لا يمكن أن ننظر إلى التاريخ باعتباره نظرية كيميائة أو قانون فيزيائي لا مجال فيه للتجربة الإنسانية بكل ما تحمل من تعقيد وتركيب .

والآن كيف نظر العقل العربي في تراثنا الفكري إلى مثل هذه القضايا في ميدان الفكر التاريخي ، حتى يتسنى لنا الدخول إلى منهاجية المقريزي في فلسفته حول التاريخ .

« ب »

المنهج الخلدوني

لعل أول ما يطالعنا به تراثنا الفكري في ميدان فلسفة التاريخ ، تلك الجهود المنهجية التي قدمها عبد الرحمن بن خلدون « ٧٣٢هـ - ٨٠٨ هـ » والذي يعد من أبرز العلامات التي أفرزها تراثنا الفكري في هذا الميدان ، وهو يعتبر خلاصة الحقل المعرفي " لفلسفة التاريخ " والحضارة والعمران البشري " ، حيث حاول استجلاء أهم العوامل والأسس التي تتقدم من خلالها الحضارة ، وكذلك العوامل والأسباب التي تؤذن بأنهيارها ، وذلك انطلاقاً من أرضيةفكرية حضارية شكلت وبلورت الصياغة النهائية لفكره التاريحي والحضاري .

ولأننا لسنا في معرض الحديث عن ابن خلدون وجهوده في ميدان الفكر التاريخي ، إلا بقدر استاذيته للمقريزي ، بالإضافةإلى التشابه الكبير في القضايا المنهجية المتعلقة بفلسفة التاريخ بينه وبين المقريزي .

ومن أولى النقاط الجديره بالذكر في هذا الإطار تفرقته بين ظاهر التاريخ وباطنه حيث يقول :

إن فن التاريخ من الفنون التي تتداوله الأمم والأجيال ، وتشد إليه الركائب والرحال ، وتسمو إلى معرفته السوقة والأغفال ، وتتنافس فيهاالملوك والأقيال ، إذ هو لا يزيد علي اخبار عن الأيام والدول والسوابق

من القرون الأولى ، وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع واسبابها عميق ، فهو لذلك اصيل في الحكمة وعريق ، وجديد بأن يعد في علومها وخليق . « ١ »

وحول حاجة المؤرخ إلى تنوع المعارف والأفكار يرى ابن خلدون :

ان المؤرخ محتاج إلى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وتثبيت ، يقضيان بصاحبهما الى الحق ، وينكبان به عن المزلات والمغالطات لأن الأخبار إذا اعتمد فيها علي مجرد النقل ، ولم تحكم اصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الأنساني ، ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب فربما لم يؤمن بها من العثور ومزلة القدم ، والحيد عن جادةالصدق ، كثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل ، المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثاً أو سميناً ، لم يعرضوها علي أصولها ، ولا قاسوها بأشباهها ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف علي طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار فضلوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط . « ٢ »

١ – مقدمة ابن خلدون : ص ٢ ، ٥ : ط ١ : المطبعة البهية : القاهرة .
٢ – المقدمة : ص ٧

ويعترف " روزنتال " نفسه بهذا حيث يقول . . إن اعظم ما قام به ابن خلدون هو تطبيق الأفكار السياسية والإجتماعية المبعثرة على التاريخ ، الذي يعتبره القوةالحية التي تربط الماضي بالحاضر بعملية واحدةمستمرة ، فالإنسان والبيئة والجهود الفردية والتنظيمات الإجتماعية كلها ماديةأولية للتاريخ حسب تحليل ابن خلدون العميق . « ١ »

وبذلك لاحظ ابن خلدون ، ان كثيراً من المؤرخين لايكادون يتجاوزون في كتاباتهم التاريخية النقل المباشر عن سابقيهم ، وكأن التاريخ حكاية عن السلف والعبرة والمثل والتسلية فحسب ، مع أن التاريخ في جوهره فلسفة عميقة لقوانين الإجتماع ، وبهذا النهج عارض من سبقوه من المؤرخين إلى جمع الروايات دون نظام منهجي خاص يفرق بين الحقيقي والأسطوري من الأخبار .

ان الذي يريده ابن خلدون بلفظ العمران هو اسلوب الحياة ، أي اسلوب حياة جماعية أي ثقافتها ، فالحضارة عنده هي الوصول إلى منتهي العمران ، أي إلى منتهى التطور الثقافي الشخصي المحلي للجماعة ، والدخول من دور الحضارة ، وهو دور الرقي الإجتماعي

١ - علم التاريخ عند المسلمين : فرانزروز نتال : ص ١٦٦ ترجمة : صالح العلي : بغداد : مكتبة المثني : ١٩٦٣م

الثابت الذي لا يتطور ، وهو لهذا يقول :

" إن الحضارة هي نهاية العمران وخروجه إلي الفساد " « ١ »

ويقول في خاتمة الكتاب الأول من المقدمةوعنوانه " من طبيعة العمران في الخليقة وما يعرض فيها من البدو والحضر والتغلب والكسب والمعاش ، والصنائع والعلوم ونحوها ، وما إلى ذلك من العلل " فيقول :

" إعلم أنه لما كانت حقيقة التاريخ أنه خبر الإجتماع الانساني الذي هو عمران العالم ، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران مثل التوحش والعصبيات واصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض ، وما ينشأ عن ذلك عن الملك والدولة ومراتبها وما ينتحله البشر باعمالهم ومساعيهم من الكسب والعيش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعته من الأحوال . " « ٢ »

والحضارة تتفاوت بتفاوت العمران ، فمتى كان العمران أكثر كانت الحضارة أكمل ، فقد تبين أن الحضارة هي سر الوقوف لعمر العالم في العمران والدولة ، والله سبحانه وتعالى " كل يوم هو في شأن " لا يشغله شأن عن شأن " « ٣ »

---

١ - المقدمة: ص ١٧٣
٢ - المقدمة ص ١٧٢
٣ - المقدمة : ص ٣٧١ ـ ٣٧٤

ومع تسليم ابن خلدون بوحدة الطبيعة الانسانية ، وهو ما اشار إليه من سبب لاغلاط المؤرخين ، حيث الجهل بالطبيعة البشرية وطبيعة المجتمعات ، أو الجهل بطبائع الأحوال من العمران ، وأنه كان ينبغي لتحاشي هذه الأغلاط العلم بطبائع الموجودات وقواعد السياسة ، وطبيعة العمران والأحوال في المجتمع الإنساني ، إنه مع تسليمه بذلك يرى أنه مع الغلط الخفي في التاريخ الذهول عن تبدل الأحوال في الأمم والأجيال بتبدل الأعصار ومرور الأيام ، وأن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ، ومنهاج مستقر ، إنما هو اختلاف على الأيام والأمكنة ، وانتقال من حال إلي حال ، من ثم فإن الدراسة تقتضي الكشف عما بين المجتمعات من وفاق أو ما بينهامن خلاف وتعليل المتفق منها والمختلف من أحوال الدول ومبادئ ظهورها ، واسباب حدوثها ودواعي تكوينها واحوال القائمين بها . « ١ »

وكان يؤكد " أن التاريخ هو جملة من المعارف النوعية يشكل موضوعهاجماع الظواهر الإجتماعية المسجلة في التاريخ الحقيقي ، كما يشكله البحث في العوامل التي ماتزال تمارس فعلها فيه ويهدف التاريخ إلى أن يستخلص من ذلك ما يصل الأسباب بمعلولاتها ، كذلك المركبات الطبيعية والنفسية ، كما أن التاريخ ليس - وفقاً لرأيه - رواية بسيطة للحوادث ، ولكنه وصف للعلاقات الإجتماعية .

---

١ - المقدمة : بشرح د .علي عبد الواحد وافي :ج١ : ص ٣٦٠ ـ ٣٦١

ويقول " فارد " : كانوا يظنون أن أول من قال وبشر بمبدأ الحتمية في الحياة الإجتماعية هو " مونتسكيو " أو " فيكو " مع أن " ابن خلدون " قد قال بذلك واثبت خضوع الظواهر الإجتماعية لقوانين ثابتة قبل هؤلاء بمدة طويلة ، فقد قال بذلك في القرن الرابع عشر « ١ »

ويؤكد ذلك الدكتور " محسن مهدي " في دراسته عن ابن خلدون حيث يقول : " إن هدف ذلك العلم الجديد هو البحث عن الوجه الباطني ، للوقائع الخارجية للتاريخ ، إن التاريخ وعلم الحضارة يدرسان وجهين لنفس الحقيقة ، فبينما يبحث التاريخ في الأحداث من الظاهر ، يوضح لنا علم الحضارة طبيعته واسباب هذه الأحداث ، تمشياً مع منطق الأشياء لابد لدراسة الحضارة أن تسبق دراسة التاريخ " . « ٢ »

لقد أخذ ابن خلدون من الفلسفة نظرتها العقلية التعميمة ومن التاريخ واقعيته والاستردادية في نهجه ليكون منهما علماً واحداً يجذب فيه التاريخ الفلسفة إلى عالم الوقائع حتى لا تحلق في سماء اليوتوبيات ، وتعمق فيه الفلسفة من التاريخ حتى لا يصبح مجرد روايات وسرد أخبار . « ٣»

١ - وقد اجتمعت علي ذلك الدراسات : نيكلسون في كتابه " تاريخ الأدب العربي ، وتوينبي في " دراسة في التاريخ " ، روزنتال في " ابن خلدون مفكراً " ، ويوافقهم ساطع الحصري ، ود . عبد الرحمن بدوي ، ود . علي عبد الواحد وافي وغيرهم

٢ - Mohsen Mahdi : Ibn Khaldon's philosophy of history : P . 171 .G .Allen and umwin . london . 1957

٣ - في فلسفة التاريخ : ص ١٣٧

أن قيمة ابن خلدون من خلال مقدمته تظهر في وثوق المنهج وصرامة النقد اللذين تنطق بهما المقدمة ، منذ صفحاتها الأولى ، ولا بد وأن يثيرا اهمامنا بسببين اثنين :

أولهما أن النقد هنا شامل أي ينصب على علم التاريخ العربي كله ومنذ أصوله ، **وثانيمها** ، أن هذا النقد جذري يطعن في المنهج الأصلي الذي قام عليه تاريخ تقليدي أقصى ما يمكن أن يبلغه ـ حتى لا يكون خاطئا هو كونه علماص بظاهر الحديث عنها لم يتغير ، وهذا ما حاوله ابن خلدون ونجح فيه إلى حد كبير ، حيث قام بإحداث تغيير جذري في الكتابةالتاريخية « أي الخطاب التاريخي » ملائم للتغير الجذري الذي وقع في التاريخ « ١ »

١ – علي اومليل : الخطاب التاريخي : دراسة لمنهجية ابن خلدون : ص ١١ : بيروت منشورات : معهد الأنماء العربي . بدون

(ج)

المقريزي وابن خلدون

تطورت بظهور ابن خلدون فلسفة التاريخ عند المسلمين . حيث افاد من جهود المؤرخين السابقين ، وخصوصاً بعد أن تحررت فكرة التاريخ من الإعتماد على المنقول وتعلقت بآفاق من التعدد الثقافي في الحضارات الإنسانية ، بالإضافة للتعليل العقلي للمادة التاريخية .

ومقدمة ابن خلدون الشهيرة لكتابه الكبير « كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر » . . . .

هذه مقدمة بحث تاريخي نقدي يعارض فيه مؤلفه اتجاه من سبقه من المؤرخين إلى جمع الروايات دون نظام منهجي ، يفرق بين الحقيقي والأسطوري من الأخبار ، وقد لاحظ أن أكثر المؤرخين لايكا دون يتجاوزون في كتاباتهم التاريخية النقل المباشر عن سابقيهم ، وكأن التاريخ حكايةعن السلف والعبرة والمثل ، مع أن التاريخ في جوهره فلسفة عميقة لقوانين الإجتماع .

وإذا كان أهم ما امتاز به منهج « المقريزي » في كتابه التاريخ هو عنايته بالظواهر الإجتماعية والأقتصادية ، بحيث يستطيع أن يتذوق القارئ اللماح في كتاباته منهجية جديدة مميزة في اطار مناهج المؤرخين العرب في فترة العصور الوسطى .

ويركز معظم الباحثين تفسيرهم لعناية المقريزي بالظواهر الإجتماعية والأقتصادية ،في صلته بابن خلدون وتأثيره به . ذلك أنه من المعروف أن المقريزي كان واحداً من تلاميذ ابن خلدون المقربين إليه ، الملتصقين به ، المتأثرين بآرائه وآفكاره ، وعندما يشير في كتاباته إلى أن ابن خلدون ، فإنه يقول « قال لي شيخنا الأستاذ / أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون رحمه الله " « ١ »

وفي حقيقة الأمر أنه مع تسليم ابن خلدون بوحدة الطبيعةالإنسانية ، وهو ما أشار إله من سبب لاغلاط المؤرخين . حيث الجهل بالطبيعة البشرية وطبيعة المجتمعات ، أو الجهل بطبائع الأحوال في العمران ، وأنه كان ينبغي لتحاشي هذه الأغلاط العلم بطبائع الموجودات وقواعد السياسة ، وطبيعة العمران والأحوال في المجتمع الإنساني ، إنه مع تسليمه بذلك يرى أنه من الغلط الخفي في التاريخ الذهول عن تبدل الأحوال ، في الأمم والأجيال بتبدل الأعصار ومرور الأيام ، وأن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم علي وتيرة واحدة ، ومنهج مستقر ، إنما هو اختلاف علي الأيام والأزمنة وانتقال من حال إل حال ، ومن ثم فإن الدراسة تقتضي الكشف عما بين المجتمعات من وفاق أو مابينها من خلاف ، وتعليل المتفق منها والمختلف من أحوال الدول ومبادئ ظهورها ، وأسباب حدوثها ودواعي

١ - **المواعظ والأعتبار : المقريزي : جـ١ : ص٥٠ : ط : بولاق**

تكوينها وأحوال القائمين بها « ١ »

وعن البعد الإجتماعي الذي هو من القسمات المشتركة بينه وبين المقريزي يؤكد ابن خلدون إن " التاريخ هو جملة من المعارف النوعية يشكل موضوعها جماع الظواهر الإجتماعية المسجلة في التاريخ الحقيقي ، كما يشكله البحث في العوامل التي ماتزال تمارس فعلها فيه ، ويهدف التاريخ إلى أن يستخلص من ذلك ما يصل الأسباب بمعلولاتها وكذلك المركبات الطبيعية والنفسية ، كما أن التاريخ ليس - وفقا لرأيه - رواية بسيطة للحوادث ولكنه وصف للعلاقات الإجتماعية " « ٢ »

وإذا كان ابن خلدون لم يستخدم تعبير « فلسفة التاريخ » في أبحاثه إلا أنه أطلق تعبير « العمران البشري » لإصطلاح خاص . هو يقابل تعبير « حضارة بشرية » الذي يعني بالتاريخ الحضاري والظواهر الإجتماعية للشعوب ، ورؤية حركة التاريخ التبشري من منظور نقدي وتحليلي .

ويرى بعض المحللين للخطاب الخلدوني، أنه يبحث عن الوجه الباطني للوقائع الخارجية للتاريخ ، إن التاريخ وعلم الحضارة يدرسان وجهين لنفس الحقيقة ، فبينما يحقق التاريخ في الأحداث من الظاهر ،

---

١ - مقدمة ابن خلدون : تحقيق د. علي عبد الواحد وافي : جـ١ : ص ٣٦٠ـ ٣٦١

٢ - المذاهب الكبرى في التاريخ : البان ويدجيري : ترجمة : ذوقان قرقوط : ص ١٣٦ ـ ١٣٧ : بيروت : دار العلم للملايين : ط١ : ١٩٧٢

يوضح لنا علم الحضارة طبيعة الأسباب هذه الأحداث ، وتمشياً مع منطق الأشياء لابد لدراسة الحضارة أن تسبق دراسة التايخ . « ١ »

وبالرغم من كل ما قيل عن ابن خلدون إلا أن هناك نقطة هامة تتعلق بمقارنته بالمقريزي في هذا الصدد فإذا كانت قيمة ابن خلدون تبدو بوضوح في إضافته الثرية إلى ميدان فلسفة التاريخ وقضية الحضارة ، وأنه قد استطاع أن يقدم رؤية تتسم بالمنهجية والعمق حول القوانين التي تحكم حركة التاريخ في أبعاده الإجتماعية والإقتصاديةوالسياسيةوغير ذلك من الميادين . . . بالرغم من ذلك علينا أن نضيف أننا إذا تركنا المقدمة ودرسنا جهده في الكتابة التاريخية المباشرة خلال تاريخ بن خلدون المسمى « العبر وديوان المبتدأ والخبر »

فإننا لا نجد أثراً واضحاً يربط منهجية ابن خلدون الفكرية بتأريخه للوقائع والأحداث التي عرض لها في تاريخه ـ بمعنى آخر ـ لا نجد تطبيقاً فكرياً على الواقع التايخي .

والحقيقة أن ابن خلدون قد تعرض في مقدمته لكثير من الوقائع التاريخية ، ولكنه عندما انتقل إلى تسجيل الأحداث التاريخية في الأجزاء التي تلت المقدمة ، فإنه قد غلب على منهجه طابع السرد التاريخي ، ولم

---

١ - M . Mahdi : Ibnkhaldoun's philosophy of histary : P . 171 : G . .Allen and umuin . londan . 1957

يتطبق منهجه التحليلي ونظرته الفلسفية على الوقائع والأحداث ، وبذلك يتضح لنا أهميةابن خدون في مقدمته أكثر منها في تاريخه .

أما المقريزي ـ وهو تلميذ ابن خلدون المعجب به المتأثر بآرائه ـ فإنه فاق أستاذه في الجانب التطبيقي ، ومهما يقال من أن المقريزي استقى من ابن خلدون اهتماماته بالجوانب الإقتصادية والإجتماعية في التاريخ ، فإنه لابد وأن يكون لديه هو نفسه الإستعداد والحماسة التي جعلته يطور تلك الجوانب ويجيد تطبيقها في تسجيل أحداث التايخ .

عندما نقول أن المقريزي تمتع بحاسة اقتصادية إجتماعية واضحة بين ثنايا كتابته التاريخية ، فإن علينا أن نذكر أن مؤلفات المقريزي الرئيسية إنطبقت اساساً بمصر وتاريخها وقد عبر عن شعوره نحو مصر وأرتباطه بها ، وحبه لها ، وحرصه علي تسجيل تاريخها وأخبارها فقال " هي مسقط رأسي وملعب اترابي ومجمع ناسي ، ومغنى عشيرتي وحامتي ، وموطن خاصتي وعامتي ، وجؤجوي الذي ربى جناحي في وقره . وعش مأربي ، فلا تهوى الأنفس غير ذكره ، ولاذلت منذ شذوت العلم ، وأتاني ربي الفطانة والفهم ، أرغب في معرفة أخبارها ، وأحب الإشراف علي الإغتراف من آبارها ، وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها . " « ١ »

١ - المواعظ والأعتبار : المقريزي : جـ١ : ص٢ : ط : (بولاق)

ولا نستطيع أن ننكر تشابه كتاب المقريزي " إغاثة الأمة " بمقدمةابن خلدون فكلاهما كتب في صميم انواحي الإقتصادية ولإجتماعية ، ولكن كتاب " إغاثة الأمة " قصر علي مصر الإسلامية ، ولمقدمة شاملة للعالم الأسلامي بوجه عام ، بل أن أوجه الشبه بين الكتابين ـ والقياس مع الفارق في الحجم ـ تتعدى هذا إلى طريقة العرض في كل منهما ، فكلا المؤرخين يبدأ كل فصل من فصول كتابه بمخاطبة القارئ والدعاء له ، ثم يعرض لحقائق موضوع الفصل في أسلوب علمي موجز ، تغلب عليه الصبغه الفلسفيه ، وتتخلله الإستشهادات التاريخية، ثم ، يختتم الفصل بآية أو آيتين من القرآن الكريم أو بيت من الشعر يناسب المقام . « ١ »

لقد تعلم " تقي الدين المقريزي " من شيخه ـ ابن خلدون ـ أن التاريخ ليس مجرد رواية للأحداث وسير الحكام وإنما هو فلسفة هذه الرواية والنظر إليها نظراً شاملاً على ضوء ما كان وما يكون لتستخرج منها العبرة وليخرج العقل منها بشئ ينفعه ويصلحه . « ٢ »

ونواصل تقديم الشهادات التي تبرز تأثر المقريزي باستاذه " ابن خلدون " مع تأكيدنا على تفوقه في جانب تطبيق نظريته للحوادث علي الواقع

---

١ - اغاثة الأمة : التصدير : ج : بقلم : محمد مصطفى زياده ، جمال الدين الشيال

٢ - احاديث منتصف اليل : د . حسين مؤنس : ص ٩٩ـ ١٠٠

المصري في محاولة منه لفهم الأسباب وتقصي الحقائق المتعلقة بعصر مصر في عهد سلاطين المماليك .

فنظرة عابرة في مؤلفاته المستقبلة تدل دلالة واضحة على مدى تأثره بمحيطه من الحوادث المضطربة ، ومثله في ذلك مثل استاذه " ابن خلدون " ، الذي رأى ما باسبانيا الإسلامية وشمال أفريقيا من تفكك وانحلال وفساد وفتنة ، فألهمه ذلك تأليف تاريخه ومقدمته ، التي غدت منذ تأليفها اساساً لدراسة تجارب الأمم ، وعوامل التطور في المجتمع واسباب انهيار الدول .

وترددت هذه النغمة الاقتصادية الإجتماعية التاريخية في مؤلفات أحمد المقريزي لأسباب أولها أنه تتلمذ لعدة سنوات على ابن خلدون ، فقد عقد عند إقامته في مصر عندما لجأ إليها سنة ١٣٨٢م ـ عقد حلقات دراسية كبيرة مبتدئاً بالجامع الأزهر ، ثم المدرسة القمحية بجوار جامع عمرو بن العاص ثم الظاهرية البرقوقية بشارع بين القصرين ، ثم الخانقاه البيرسية بجوار باب النصر الحالي ، وصارت هذه الحلقات الدراسية نواة لمدرسة فكرية تخرج فيها أحمد المقريزي وغيره من معاصريه .

والسبب الثاني هو المحيط المملوكي الذي أنغمست فيه مصر وأهلها ، على حين عاش سلاطين المماليك وأمراؤهم في حزبية وعصبية عنصرية أنتحارية بين الأتراك والجراكسة مرة ، وبين المماليك المتوطنين والوافدين مرة أخرة ، وثمت سبب ثالث ، وهو أن أسرة المقريزي جاءت إلى مصر حديثاً

في حياة ابيه من مواطنها ببعلبك بلبنان ، ولابد أن احاديث اسرته قد امتلأت بوصف خصائص الحياة المصرية الجديدة عليها ، وبمقارنتها بالحياة في لبنان فتولدت فيه روح الأستطلاع والفحص منذ طفولتـــه ومراهقته وشبابه . « ١ »

١ - كتاب السلوك : امقريزي : دراسة بقلم : د . محمد مصطفى زياده : ص ٧ : مجلة تراث الأنسانية : المجلد السابع

(د)

منهج المقريزي

بينا فيما سيق أهمية المنهج في دراسة الواقعة التاريخية ، كما بينا صعوبة أن يتجرد الباحث من ذاتيته وهو يرصد حركته ، ولكن ذلك لا يعني المؤرخ من الموضوعية وشروطها والواقعية وأسسها .

قد وقف ابن خلدون عند أهم الشروط التي بجب أن يضطلع بها المؤرخ والتي تحدد حقيقة منهجه من ناحية حول رصد الواقعة التاريخية ، ومن ناحية أخرى تبين قيمة المفكر وآسهاماته في الوعي بالظواهر التاريخية وتعقيداتها فيقول ابن خلدون :

ان المؤرخ محتج إلى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما إلى الحق ، وينكبان به عن المزلات والمغالطات لأن الأخبار إذا اعتمد فيها علي مجرد النقل ، ولم تحكم أصول العادة وقواعد الساسة وطبيعة العمران والأحوال في الأجتماع الأنساني ، ولا قياس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب ، فربما لم يؤمن بها من العثور ومزلة القدم ، والحيد عن جادة الصدق ، وكثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل ، المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها علي مجرد النقل غثاً أو سميناً ، ثم يعرضوها علي أصولها ، ولا قاسوها باشباهها ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف علي طبائع الكائنات وتحكيم النظر

والبصيرة في الأخبار فضلوا عن الحق وتاهوا في بيداءالوهم والغلط . « ١ »

إن النظر إلى التاريخ بهذا المنهج المدقق الشامل ، يحتم على المؤرخ - طبقاً لرأي ابن خلدون - أمرين اساسيين هما : تمحيص الأخبار : لتمييز الحق من الباطل والصدق من الكذب فيها ، وللتأكد من مطابقتها للوقائع ، ثم تعليل الوقائع ، لمعرفة كيفية حدوثها ، واسباب تزاحمها وتعاقبها . « ٢ »

والآن نحن مع المقريزي في منهجه ليتسنى لنا الوقوف عند جهوده في الكتابة التاريخية حتى ندرك اسهاماته في هذا الجانب ولنتعرف عليه في تطور مناهج الفكر التاريخي من تحليل الأحداث والوقائع ٠

أول ما نلاحظه في كتابات المقريزي القدرة على التجرد من الأهواء وأمانة العرض ، وعدم التعصب لرأي أو التميز لفكر مع عفتة القلم واحترام الغير وإذا كانت الأمانة صفة لازمة لكل عالم ، فإنها الزم للمؤرخ منها لأي عالم آخر ، وبمقارنة كتابات المقريزي بما دون غيره من المؤرخين المعاصرين ، نجده أكثرهم اعتدالاً ، وأوفرهم دقة ، وابعدهم عن الإستجابة للأهواء والميول والنزوات ، ولا يخفى عنا أن المقريزي قد عاش في عصر كثر فيه التحاسد بين العلماء ، وعرض بعضهم لبعض

---

١ - مقدمة ابن خلدون : ص ٧

٢ - دراسات عن مقدمة ابن خلدون : ساطع الحصري ك ص ٢٦٥ : القاهرة : مؤسسة الخانجي : ط٣ : ١٩٦٧م

بالذم والإساءة ، ولكن المقريزي ظل بعيداً عن الخوض في ذلك المستنقع مكتفياً عند الشروع في تأليف كتاب بأن يدعو الله " أن يحلي هذا الكتاب بالقبول عند الجلة والعلماء كما أعوذ به من تطرق أيدي الحساد إليه والجهلاء ، وأن يهديني فيه ـ وفيما سواه من الأقوال والأفعال ـ إلى سواء السبيل " « ١ »

ثانياً : لم يكتف المقريزي بتدوين ما يسمعه ونقل ما يقرأه ، وانما عرف عنه التدقيق وحب الأستقصاء والرغبة في معرفة اسباب الظواهر وعلل الأحداث ، يقول المقريزي عن نفسه عند ذكر بعض الأحداث " فكثر تعجبي من ذلك ، ومازلت أفحص عنه على عاداتي في الفحص عن احوال العالم حتى وقفت علي . . . . " « ٢ »

ثالثاً : عدم الإسراف في الاستطراد ، والمقصود بالأستطراد هنا الأنتقال من موضوع إلى ثان ثم إلى ثالث لاتفه الأسباب وأوهى المناسبات وربما تنبه الكاتب بعد فترة ـ قد تطول أو تقصر ـ إلى أنه ترك موضوع حديثه الأصلي وبعد عنه ، فيتعذر للقارئ ، واحياناً يستغفر الله ويعوذ من الشيطان الذي صرفه عن قصده ، وبخط عريض يقول " نعود إلى ذكر كذا و . . . " وبذلك يصحح مساره .

---

١ - مقدمة كتاب : المواعظ والأعتبار : للمقريزي : ج١ : ص٣ : ط : بولاق

٢ - كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك : المقريزي : جـ٤ : حوادث سنة ٨٢٦ هـ

رابعاً : العناية بأخبار مختلف طبقات الشعب وفئاته ، ذلك أنه مما يؤخذ علي كتابه التاريخ في تلك العصور ، أن المؤرخين تمشوا مع الأوضاع التي تعتبر التاريخ ربيب الحكام والخلفاء والسلاطين وللملوك ولازراء ، وبالتالي فإنهم ركزوا في تدوين التاريخ علي تسجيل أخبار الحكام ، وما كان يجري في القصور ، مع التطرق أحياناً إلى أخبار الأعيان والمرموقين من القادة والتجار والعلماء ونحوهم ، أما الشعوب وعامة الناس ، وما كان يجري في الأسواق والحارات ، ومادار خارج الحواضر والمدن من ريف وبادية ، فكان المؤرخ لا يتعرض له عادة إلا بالقدر الذي يمس سير الحكام والأعيان ، ويتضح ذلك من اسماء عناوين الكتب التاريخية في تلك العصور مثل " الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين " ، " والدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة " ، " النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة "

وعندما اراد اسماً لحولياته الشهيرة اختار أن يسميها " السلوك لمعرفة دول الملوك " فهو لم يختص الملوك وإنما استهدف دول الملوك ، وكل دولة فيها الكبير والصغير ، وإذا كان قد اختص الحكام والخلفاء ، والملوك بكتاب ، فإنه اختصهم بالذكر في كتاب أكثر ارتباطاً بشعائر الدين وذكر الله ، فوضع كتاباً اسماه " الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك " .

ويقول عن كتابه " المواعظ والأعتبار "مؤكداً أنه يكتب للعامة أيضاً " واني لارجو أن يخطى إن شاء الله تعالى عند الملوك ، ولا ينبو عنه طباع العامي والصعلوك ويجله العالم المنتهى ، ويعجب به الطالب المبتدى ، وترضاه خلائق العابد الناسك ، ولا يمجه سمع الخليع الفاتك ، ويتخذه اهل البطالة والرفاهية سمراً ، ويعده أولوا الرأي والتدبير موعظة وعبراً " « ١ »

خامساً : عدم مداهنة الحكام : ذلك أن آفة خطيرة من الآفات التي ابتلى بها التاريخ عي مر العصور هي مداهنةكثير من الكتاب للحكام والسلاطين والملوك ، والمعروف أن المقريزي دون مؤلفاته في القرن التاسع الهجري ، أي في عصر تخلت أمور طبقة المماليك الحاكمة ، واهتز نظامهم وفسدت احوالهم ، وبدت صورتهم غير ما كانت عليه في القرنين السابقين ،ولكنه لم يضعف أمام بريق الحياه ، ولم يصغر أمام السلاطين الذين عاصرهم والذين عرضوا عليه الوظائف والمناصب ، وإنما آثر في مرحلة معينة أن يعتزل الخدمة الحكومية ويترك المناصب للراغبين فيها ، واختار المقريزي أن يقضي المرحلة الآخيرة من حياته عاكفاً في بيته بالقاهرة عن الأشتغال بالعلم والتأليف والكتابة .

---

١ - الواعظ والأعتبار : المقريزي : ج١ : ص٣

وبذلك لم يسمح المقريزي لنفسه أن يكون عبداً للسلطان أو أسيراً للوظيفة الأمر الذي جعله حراً فيما يكتبه ، وبالتالي فإنه لم يكن يتحرج من نقد الأوضاع القائمة ، كشف النقاب عن أجهزة الدولة ، والقاء المسئولية على عاتق السلاطين والحكام .

من ذلك أنه في حوادث سنة ٨٣٢ هـ يتحدث عن جشع السلطان " برسباي " وتطرقه في سياسته الأحتكار وانزال المظالم بالتجار " حتى حل بالناس لا يمكن حكايته . « ١ »

وفي حوادث سنة ٨٣٤ هـ أنتقد بشدة الخلل الذي اصاب نظام الحكام ، وجهاز الحكومة " فتزايدت المضرة لكثرة التناقض وعدم الثبات على الأمر واستخفاف العامة براعيها " « ٢ »

وبذلك يمكننا القول أن قيمة التاريخ المكتوب تتجدد بناء علي ثقافةالباحث ، وإلمامه بطريقة البحث التاريخي ، وبناءً عى استعداده الشخصي وملكاته ، وكثير من كتب التاريخ تعد من أهم المصادر التي تساهم في تكوين منهاجية المؤرخ ، وخبرته الوطيدة وتبصره ، بخاصة في اطار وحدة واضحة جامعة ، هذا بالإضافة إلى البعد الواقعي ومراقبة الأحداث عن كثب ، والإحتكار المباشر بحركة المجتمع ، والتحليل العميق للعلاقات الإجتماعية السائدة ، وشكل العلاقة بين

---

١ - السلوك لمعرفة دول الملوك : المقريزي : ج٤ : حوادث سنة ٨٣٢هـ

المواطن والسلطة الحاكمة ، ودرجة القيم السائدة ، وحجم السياسة المالية ، وتفشي العادات والتقاليد السيئة وكل ذلك من أجل الخروج بفلسفة تسعى للكشف عما وراء الأحداث وسبر أغوارها حتى يصل المؤرخ المفكر إلى نظرة واضحة السمات والمعالم تحدد توجهه ومنهاجه في فهم حركة التاريخ .

ونحن الآن مع المقريزي في مؤلفاته لنرى إلى أي حد استطاع أن يقدم لنا رؤيةفكرية ومنهجية حول احداث عصره ـ وخاصة في مصر ـ التي عاش فيها واحبها وارخ لواقعها بعين ناقدة وتحليل موضوعي يتسم بالنضج والموسوعية .

وسيكون تركيزنا علي كتابه " إغاثة الأمة بكشف الغمة " لأنه الكتاب المباشر للمقريزي الذي ينحو فيه نحو الهاجس الخلدوني المتعلق بقضية سقوط المجتماعات وتقدمها وهو ما يعرف اصطلاحاً بقضية " السقوط الحضاري " .

الفصل السادس
تحليل المقريزي للواقع المصري
« أ » فلسفة الوضع الاقتصادي

لاشك أن طريقة ابن خلدون في طرح المسألة العمرانية ، وفي الجرى المستمر وراء تحديد علل لأنحطاط ، وبالتالي علل التقدم ، تستقطب كل الجهود التي بذلها المؤرخون في حقل الفكر التاريخي وفلسفته في تراثنا ، ولكن ذلك لا يعني عدم وجود العديد من الجهود الفعالة التي حاولت استجلاء عوامل المد والجزر للظواهر الإجتماعية والأقتصادية والأخلاقية ودورها في تفسير الحركة التاريخية للمجتمعات ، هذا الأستجلاء والتحليل الذي اعتمد على النقد والتفهم وتغيير الواقع بدءاً من الأعتراف به ـ علي علاته ـ وتحليله من أجل تبين أكثر الوسائل نجوعاً للنهوض به أو لتعديله أو لتغييره، وعندما نقول أن المقريزي تمتع بحاسة تحليلية لأحداث مجتمعه وعصره ، من خلال الأبعاد الأجتماعية والأقتصادية ، وهذا ما ظهر بوضوح في مؤلفاته ، فلابد من التأكيد عي ارتباط الحاسة التاريخية لدى المقريزي بالبيئة المصرية وتاريخها الذي عاصره والتي أكد علي حبه لها وارتباطه الوجداني والنفسي بها حيث عبر عن ذلك بقوله : " هي مسقط رأسي وملعب اترابي ومجمع ناسي ، ومغنى عشيرتي وحامتي ، وموطن خاصتي وعامتي ، وجؤجؤي الذي ربى جناحي في وكره ، وعش مآربي ،

قلا تهوى النفس عير ذكره ، ولازلت مذشذوت العلم ، وأتانى ربي الفطانه والفهم ، أرغب في معرفة أخبارها ، واحب الأشراف علي الأغتراف من ابارها ، واهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها " « ١ »

لقد وقف المقريزي حياته الخصبة عي تدوين تاريخ مصر الأسلامية ، وتدوين امجادها في مثابرة تثير الدهشة والأعجاب ، يدفعه إلى ذلك حب مضطرم لهذا الوطن الذي نشأ فيه ، وترعرع بين ربوعه ، وشهد خلال حياته طرفاً من محنة وأمجاده . « ٢ »

لقد دب في المجتمع المصري ـ في عصر المقريزي ـ الفساد ، وبدأت عوامل الأنحلال تنخرفي كيانه وكان المقريزي نفسه يتوقع انهيار هذا المجتمع بعد أن رآه وقد تفشى فيه الفقر والفاقة وقله المال وخراب الضياع والقرى ، وتداعى الدور للسقوط وشمول الخراب أكثر معمور القاهرة ، واختلاف أهل الدولة وانقضاء عدتهم وقد صدق حدس المقريزي فلم تمض فترة وجيزة علي وفاته ، حتى كانت مصر قد وقعت تحت سلطان العثمانين . « ٣ »

وإذا كان صدق الحاسة الأقتصادية عند المقريزي ، جعله يدرك خطورة العامل الأقتصادي ، وأهميته في تشكيل حياة البلاد والعباد ، فإن هذه

١ - المواعظ والأعتبار : المقريزي : ج١ : ص٢ : ط : بولاق
٢ - دراسات عن المقريزي : د . محمد عبد الله عنان ك مرجع سابق : ص ٣٩
٣ - دراسات عن المقريزي : د . محمد محمود الصياد : ص ١١٠ : مرجع سابق

النظرة الثاقبة لم تبد فقط في شتى كتاباته ، وانما بدت أشد ما تكون تركيز ووضوحاً في كتابه " انما ثة الأمة بكشف الغمة " ذلك أن المقريزي دون كتابه هذا من منطق اقتصادي ، وفي ظل ظزرف اقتصادية قاسية ، ومن واقع أزمة عميقة عايشها وقاسى منها ، ودفع فيها ثمناً باهظاً ترك أعمق الأثر في نفسيته ووجدانه ـ ونعني بهده الأزمة المجاعة التي خلت بمصر ـ واستمرت بصورة متقطعة بين سنتي ٨٠٧ هـ ، ٨٠٨هـ وما صاحبها من انتشار الطاعون في البلاد وهو الوباء الذي ذهب ضحيته آلاف الناس ، ومن حملته ابنة المقريزي ووحيدته ، وهكدا فإن المقريزي عندما عالج سوءالحالة الأقتصادية في كتابه " اغاثة الأمة بكشف الغمة " وبحث في اسباب الداء ، وفتش عن الدواء ، انما كان يكتب بأحاسيسه ، يسجل مارآة بعينه ، وما أحس بفؤاده ، وليس فقط ما سمعه بأذنيه . « ١ »

ويقول الأستاذ الدكتور حسين فهمي في تقديمه للطبعة الثانية من كتاب " اغاثة الأمة " : لقد اعجبت به إعجاباً شديداً فهو يحوي بين دفتيه عرضَ لنظرتين من النظريات الاقتصادية الحديثه المعقدة تتصل احداهما بالأزمات وديتها ، والثانية خاصة بتثبيت النقد وعلاج تدهوره ، وقد سبق المقريزي العالم الأقتصادي الأنجليزي " جربشام "بمائة سنة " في شرح النظرية

---

١ - اضواء جديدة على المؤرخ أحمد بن علي المقريزي وكتاباته : مصدر سابق : ص ١٩١

القائلة " النقود الرديئة تطرد النقود الجيدة من التداول " .

وقد استطرد المقريزي في أثناء شرحه فأوضح اثر الأسراف في اصدار الفلوس واستخدامها عملة رئيسية ، وقسم المجتمعات إلى طبقات ، وبين اثر التضخم في حالة هذه الطبقات ، موضحاً أن افراد الطبقات ذات الدخل الثابت هم الذين يتأثرون واضحاً بهذا التضخم . « ١ »

وقد بدأ المقريزي كتابه هذا « ٢ » بالإشارة إلى أن من اجل نعم الله ـ عز وجل ـ علي الانسان أن ينير بصيرته ويلهمه العلم والحكمة ، ليبين للناس اسباب ما نزل بهم من محن ويعرفهم كيف يكون الخلاص منها ، ثم يوضح ذلك فيبين أولاً طبيعةالأوضاع التي عاصرها وغيره من البشر ، وكانت من شدتها أن وصل الناس إلى حالة من التشاؤم في امكانية القضاء علي ماحل بهم من نكبات فيرى :

لما طال امد هذا البلاء المبين وحل فيه بالخلق انواع العذاب المهين ، ظن كثير من الناس أن هذه المحن لم يكن فيما مضى مثلها ولا مر في شبهها ، وتجاوزوا الحد فقالوا لا يمكن زوالها ، ولا يكون أبداً عن الخلق انفصالها ، وذلك أنهم قوم لا يفقهون ، وبأسباب الحوادث جاهلون ، ومع العوائد

---

١ - دراسات عن المقريزي : ص ٣٠ : د . حسين فهمي

٢ - اغاثة الأمة بكشف الغمة : تحقيق : محمد مصطفي زياده وجمال ادين الشيال : الطبعة الثانية القاهرة : ١٩٥٧م

واقفون ، ومن روح الله آيسون . « ١ »

أن هذا النص يحيلنا إلى طرح قضية هامة من قضايا فلسفةالتاريخ ، وهي المتعلقة بحركة المجتمع حين تتعدد أزماته ، وتكاد تعصف به الأهواء وتدمره الأدواء ، حتى ينظر الناس إلى احوالهم المتردية نظرة يعتريها التشاؤم واليأس ، وتنتابهم الحيرة في علاج هذه الأزمات والخروج منها .

وفي هذا الأطار نتذكر موقف ابن خلدون الذي يتسم بـ " الحتمية التاريخية " حول امكانية اعادة المجتمع إلى تماسكه ، حيث تسيطر علي الرؤية الخلدونية مسحة من التشاؤم حول امكانية اعادة منحنى التحلل التاريخي إلى حالته الحضارية المتوازنة .

فحركة التاريخ عند ابن خلدون ، حركة محتومة لا مفر منها ، والدول جميعاً تخضع لها ، فليس هناك دولة تبقى لا يغلبها غالب ، فلكل دولة عمر كعمر الأفراد ، تبدأ في نشيطة مزدهرة ثم تهرم وتموت ، فحركة الحضارة عنده تتخذ صفة الضرورة ، الأمر الذي جعل نظريته تتصف بالحتمية التاريخية ، فالدولة في دور انحطاطها أو هرمها ، كان ذلك كالهرم في الأنسان أمراً طبيعياً لا يتبدل ، وأنه حتى إذا تدارك بعض أهل هذه الدول ذلك التدهور بالأصلاح ، فإن الأمر لن يزيد عن ومضة المصباح قبل أنطفائه

---

١ - اغاثة الأمة بكشف الغمة : ص ٣ ـ ٤

، توهم أنها اشتعال وهي انطفاء ولكل أجل كتاب . « ١ »

ولكن الواضح من نص المقريزي أن يختلف مع ابن خلدون في نظرته إلى مرحلة التحلل التاريخي للمجتمعات حيث يرى ـ أي المقريزي ـ امكانية تجاوز هذه الأزمات التاريخيه للمجتمعات حيث يرى ـ أن المقريزي ـ امكانية تجاوز هذه الأزمات ورفض النظرة التشاؤمية في عدم امكانية القضاء على أزمات المجتمع ، وقد أرجع المقريزي هذه النظرةإلى العوامل الكافية في الشخصية غياب التفقه في واقع المجتمعات وطبيعة حركتها فيرى أن الناس في هذه كما يصفهم " قوم لا يفقهون " وبأنهم " جاهلون باسباب الحوادث " وأنهم يقفون بصورة سلبية عند اوضاعهم الإجتماعية وتقاليدهم البالية والتي اعتادوا عليها دون تطوير أو تغيير إلى الأفضل فيقول " ومع العوائد واقفون " .

بهده النظرة الموضوعية يبرز لنا موضوعية المنهج المقريزي في التعامل مع واقعه تدهور المجتمعات حين تعتريها الأزمات ، فهو هنا يركز ويؤكد علي دور الأنسان من حيث هو قوة فاعلة وقادرة على اعادة منحنى السقوط والإنكسار في حركة المجتمع عن طريق رفض النظرة التشاؤمية إلى الواقع الإجتماعي وارجع اسباب هذه النظرة إلى عدم تدبر السنن والقوانين التي

---

١ – المقدمة : ابن خلدون : في فصل بعنوان : " في أن الهرم إذا نزل بالدولة لا يرتفع " يراجع للتفصيل .

تحكم حركة التاريخ والمجتمعات للوقوف على حقائق الأمور ، بالإضافة إلى جهل الناس الذي يستشري في أزمنة الأنحطاط ، ويعده المقريزي علة من علل الأنحطاط في المجتمعات ، هذا بالإضافة إلى السلبية الواضحة في النظر إلى العادات والتقاليد والمعتقدات البالية التي ينبغي أن تتطور إلى الأفضل في سبيل نهضة المجتمع ، وبذلك يعتبر المقريزي أن الأنسان افرد هو محور الفاعلية والنشاط في حركة الإنجاز الحضاري ، حتى في أحلك ظروف المجتمع التاريخية في كافة النواحي .

فما هي أهم هذه الأسباب التي يجهلها الناس ، ولا يفقهون في معانيها ، والتي تساهم في تنمية هذا البلاء الذي حل بالناس ووصل بهم إلى هذا الحد من النزعة التشاؤمية الواضحة في علاج أزماتهم ؟

يرى المقريزي " ومن تأمل هذا الحادث من بدايته إلى نهايته ، وعرفه من أوله إلي غايته علم أن ما بالناس سوى تدبير الزعماء والحكام وغفلتهم عن النظر في مصالح العباد ، لا أنه كما مر من الغلوات « المرة »وما انقضى من السنوات المهلكات " « ١ »

في هذا النص يبين المقريزي الأسباب الحقيقية التي توقع المجتمعات إلى هذه المرحلة التي تكاد تعصف بالبناء الإجتماعي من قواعده ، وتشل حركة الانسان نحو التطور والنهوض .

١ - اغاثة الأمة : ص ٤

فيعيها المقريزي إلى " تدبير الزعماء والحكام " من خلال " غفلتهم عن النظر في مصالح العباد " ومعنى هذا ان المقريزي يبرز بوضوح مسئولية السلطة الحاكمة ، عما يصل إليه المجتمع صعوداً أو هبوطاً في حركة المجتمع التاريخية ، وهو بهذا يضيف إلى وعيه بالتاريخ رصيداً جديداً من الوعي بطبيعة العلاقة بين الحاكم ورعيته .

ويؤكد علي أن عدم رعاية الحكام لمصالح الرعية ، وعدم العناية بالأوضاع التي وصلت إليها مجتمعاتهم ، يرى أن ذلك من أهم الأسباب التي تؤدي إلى زيادة معدل الفساد في المجتمع ، لا إلى القضاء عليه ، حيث يفضي ذلك بدوره إلى هبوط منحنى الحركة الإجتماعية وبالتالي حركة التاريخ الحضاري لذلك المجتمع .

ويحاول المقريزي أن يخفف من وقع الأحساس بعمق الأزمة على معاصريه ، حيث أن الناس قد اعتادوا في مثل هذه الأزمات على تصور أن ما حل بمجتمعاتهم من محن وابتلاء لم يشهد التاريخ مثله من قبل ، وأن معدل الأزمات قد فاق بكثير كل المراحل التاريخية الي مضت ، ومن ثم يعتريهم اليأس ، فيقول :

" وجب علينا أن نسلم للقائلين لذين ضاقوا ذرعاً بحوادث زمنهم على ما زعموه من أن هذه الحوادث صعبة عليهم ولا نسلم لهم ما جاوزوا به الحد

من ادعائهم ، أنها في المقارنة والقياس اصعب من التي مضت . " « ١ »

فهو بهذا النص يرفض تصور الناس على أن ما حل لم يتعرض له المجتمع من قبل في تاريخه الطويل ، والناس وفق هذا الفهم لواقعها الإجتماعي والأقتصادي تصاب بالإحباط الذي يفضي إلى اليأس ومن ثم تتم تنمية التخلف وزيادة معدل التدهور بدلاً من توقفه وتجاوزه .

وهو يؤكد على أن ما حل بالناس في عصره ـ في المجتمع المصري تحديداً ـ ليس الأول من نوعه في التاريخ المصري ، وليس أشد قسوة واسوأ حالاً من أوضاع تاريخية سابقة ، لكنها النظرة القاصرة ، والرؤية المحدودةالي تحيل واقع الناس إلى مزيد من القنوط والسلبية والمفضية إلى تحلل المجتمع ، فيقول : " واعلم أن المسموع الماضي لا يكون أبداً موقعه من القلوب موقع الموجود الحاضر في شئ من الأشياء ، وإن كان الماضي كبيراً والحاضر صغيراً ، لان القليل من المشاهدة ، أكثر من الكثير بالسماع " والله يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً ، وما يذكر إلا اولوا الألباب " « ٢ »

ولكي يبرهن على صحة نظرته نحو حركة التاريخ ، فقد راح المقريزي يتتبع الأزمات الاقتصادية الي حلت بمصر منذ أقدم العصور ، ويرجع بذلك

١ - اغاثة الأمة : ص ٥
٢ - نفسه : ص٦

إليمـا قبل طوفـان نـوح عليه السـلام ، ويتـدرج إلي أن وصل إلى الأزمة الطاحنة التي حلت بالبلاد زمن يوسف الصديق عليه السلام .

وفي ظل الأسـلام حـدثت أول أزمـة اقـتـصـادية بمصـر في سنة سـبع وثمانين للهجرة ، ووالى مصر يومئذ هو عبد الله بن عبد الملك بن مروان ـ الذي وليها من قبل ابيه الخليفة عبد الملك ـ " فتشاءم به الناس ، لأنه أول غلاء وأول شدة رآها المسلمون بمصر "

ومنذ الفتح العربي الاسلامي لمصر حتى أيام المقريزي نفسه ، عدَّد هذا المؤرخ نحـواً من عـشـرين أزمـة اقـتـصـادية ، تفـاوتت في شـدتـهـا ، ارجع معظمها إلى قصور نهر النيل وعدم وفائه وانخفاض مستوى الفيضان ، وارجع القليل منها إلى كثرة الأضطرابات ، وتعدد الفتن ، وعدم الأستقرار والأمن بسبب المصادمات بين طوائف الجند والأمراء ، وما صحب ذلك من نهب الأسواق واختلال الأوضاع الأقتصادية . « ١ »

وفي جـمـيع الحـالات وصف المقريزي بإيجاز مـا كـان يحـدث في تلك الأزمات أو الغلوات من ارتفاع في الأسعار ، ونقص في الأقوات، وما كان يصاحب ذلك غالبا من انتشار الطاعون والأوبئة الفتاكة ، مما يزيد مـــن وقـــع البلاء . « ٢ »

---

١ - اغاثة الأمة : ص ١٣

٢ - اضواء علي المؤرخ المقريزي : مصدر سابق : ص ١٩٢

وقــد عـــدد المقريزي في كتابه " اغاثة الأمة " ما حل بمصر من الغلوات . « ١ »

وما نجم عن هذه الغلوات من محن وأوبئة ، فإن لم يشر إلي الوباء الأسود الذي انتشر بمصر سنة ٧٤٩ هـ « ١٣٤٩م »

وهو وباء عالمي عرف في مصادر تاريخ العصور الوسطى باسم " الموت الأسـود " Black Death ويعلل الأستاذان الجليلان الذان قاما بتحقيق كتاب " اغاثة الأمة " ذلك بأن المقريزي قصر بحثه في هذا الكتاب على أخبار الأوبئة الناجم عن اسباب داخلية ـ قصور النيل وسوء الحكم في مصر ـ في حين أن وباء سنة ٧٤٩ هـ كان خارجي المصدر ، وفد علي البلاد نتيجة العدوى التي زحفت من الشرق الأقصى على امتداد الطرق التجارية المتجهة غرباً ، واستمر هذا الوباء ـ الذي اجتاح الشرق الأوسط وأوربا ـ نحوا من قرنين من الزمان حصد فيهما عدداً يتراوح بين ثلث ونصف سكان البلاد التي انتشر فيها . « ٢ »

وقد تعرض المقريزي لهذا الوباء بالتفصيل في موضع آخر من مؤلفاته ، فقال في كتابه " السلوك لمعرفة دول الملوك " عن اثر هذا الوباء « ٣ »

---

١ - اغاثة أمة : ص ٧ ـ ٤١

٢ - عن هذا الوباء وانتشاره واثره : انظر : سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى : جـ١ : ص ٥٧٥

٣ - السلوك لمعرفة دول الملوك : المقريزي : حوادث سنة ٧٤٩ : جـ٢ : ص ٧٧٠ ـ ٧٨٥

وكان يموت بالقاهرة ومصر ما بين عشرة آلاف إلى خمسة عشرة الف إلى عشرين الف نفس في كل يوم ، وكانت الحفرة يدفن فيها الثلاثون والأربعون وأكثر ، وعم مع ذلك غلاء الدنيا جميعاً . . .

يحاول المقريزي أن يبين لنا العلل وراء هذه الأزمات الأقتصاديةوتلك النكبات التي حلت بالناس منذ أقدم اعصور ، فنجده يصرح بالقول : " أن الغلاء الذي حل بالخلق منذ كانت الخليقة ، فيما نقل من أخبارها بسائر البلاد في قديم ازمان وحديثه ، على ما عرف من أحوال الوجود وطبيعة لعمران ، وعلم من أخبار البشر ، انما يحدث من آفات سماوية في غالب الأمر ، كقصور جريان النيل بمصر ، وعدم نزول المطر بالشام والعراق والحجاز وغيره ، أو أفة تصيب الغلال من سمائم تحرقها أو رياح تهيفها ، أو جراد يأكلها ، وما شابه ذلك ، هذه عادة اله تعالى من الخلق ، إذا خالفوا أمره واتوا محارمه ، أن يصيبهم بذلك جزاء بما كسبت ايديهم . « ١ »

ويبدو أن هذا التعليل كان بمثابة التفسير الأولى الذي حاول به المعاصرون ـ حكاماً ومحكومين تعليل المحن التي نزلت بهم ، ولذلك كثيراً ما كان الناس في تلك الأزمات يعلنون توبتهم ، ويكثرون من الصلاة ، كما يلجأ الحكام إلى اصدار الأوامر باراقة الخمو وتحريم تعاطيها في مختلف انحاء البلاد ، اظهاراً للتوبة . « ٢ »

---

١ - اغاثةأمة : ص ٤١

٢ - السلوك : حوادث : سنة ٧٠٩ ، ٧٨١ ، ٨٣١هـ

والشعوب مع إيمانها بالله وقضائه ـ وهنا يبدو وعي المقريزي واضحاً ـ لم تعف الحكام من المسئولية أمام المحن والأزمات التي تكاد تعصف بحياة الناس ومعيشتهم .

وكما يقول المقريزي في الأغاثة : " كان يحدث في كثير من الحالات أن تثور الرعية " . « ١ »

وفي أيام الغلاء سنة ٧٩٨ هـ هدد العوام المحتسب فاضطر إلى الأنقطاع في بيته لا يجرؤ على مغادرته خوفاً من العوام ، وقد تخوف السلاطين من غضبة العوام فلجأ بعضهم عند حدوث غلاء إلى الأمر بجمع الفقراء وذوي الحاجات وتوزيعهم على الأغنياء والأمراء ، بحيث يلتزم كل منهم باطعام عدد معين . « ٢ »

وفي الغلاء الذي حدث سنة ٧٧٦هـ ، أمر السلطان أأشرف شعبان " بجمع الفقراء ، وفرقهم على الأمراء ومياسير التجار " . « ٣ »

ومن خلال النص الذي أورده المقريزي في " الأغاثة " والذي يقول فيه بعد أن يعدد صور اكوارث التي حلت بكثير من أقطار العالم الأسلامي ويرجع ذلك إلى قضاء اله وقدره بقوله " هذه عادة الله في الخلق ، إذا هم خالفوا أمره واتوا محارمه ، أن يصيبهم بذلك جزاء بما كسبت أيديهم . « ٤ »

١ - اغاثة الأمة : ص ١١
٢ - السلوك : جـ٣ : ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣
٣ - نفسه : حوادث سنة٧٧٦
٤ - الأغاثة : ص ٤١

فهل يعني ذلك أن المقريزي يقف عند التعليل الديني للحوادث ، ولا يأخد بسببية الوقائع ، وبالتالي فقد اقحم نفسه في اطار التفسير الديني للتاريخ ، وخاصة أنه يرجع اسباب الغلوات والمحن في مصر - وفي كثير من الأحيان - إلى نقص مياه النيل وعدم وفائه ؟

الحقيقة أن المقريزي لا ينفي ايمانه بالقدر وبتدخل الإرادة الألهيه في حياة الإنسان ومسيرة التاريخ ، ولكنه كمؤرخ واقعى يستوعب الأسباب الكافية وراء الأحداث فقط .

وتبدو واقعية المقريزي بوضوح في الأسباب التي أوردها لتعليل أحداث مصر التي ابتلت بها وخاصة في سنة ٨٠٦ هـ التي عاصرها ، والتي يقول أنه بسببها وضع والف كتاب " الاغاثة "

ففي هذه السنة أرجع أزمتها التي عاصرها إلى ثلاثة اشياء ولا رابع لها علي حد تعبيره فيقول : " وسبب ذلك كله ثلاثة اشياء لا رابع لها "

السبب الأول : وهو اصل هذا الفساد " ولاية الخطط السلطانية والمناصب ادينية بالرشوة ، كالوزارة واقضاء ونيابة أقاليم وولاية الحسبة وسائر الأعمال ، بحيث لا يمكن التوصل إلى شئ منها إلا بالمال الجزيل ، فيحظى لاجل ذلك كل جاهل ومفسد وظالم وباغٍ رلى مالم يكن يؤلمه من الأعمال الجليلة ولولايات العظيمة . . . .

ولا جرم أنه يغمض عينيه ولا يبالي بما اخذ من أنواع المال ، ولا عليه

بما يتلفه في مقابل ذلك من الأنفس ، ولا بما يريقه من ادماء ، ولا بما يسترقه من الحرائر ، ويحتاج إلى أن يقرر على حواشيه وأعوانه ضرائب ، ويتعجل منهم أموالاً ، فيمدون هم أيضاً أيديهم إلى أموال الرعايا ، ويشرئبون لأخذها بحيث لا يعفون ولا يكفون .

لما دهي أهل الريف بكثرة المغارم ، وتنوع المظالم اختلت أحوالهم ، وتمزقوا كل ممزق وجلوا عن أوطانهم ، فقلت مجابي البلاد ومتحصلها لقلة ما يزرع بها ، ولخلو أهلها ورحيلهم عنها لشدة الوطأة من الولاة عليهم ، وعلى من بقى منهم ، فاقتضى الحال من أجل ذلك ثورة أهل اريف وانتشار الزعار « اللصوص » وقطاع الطريق ، فخيف السبل ، وتعذر الوصول إلى ابلاد بركوب الخطر العظيم ، وتزايدت غباوة أهل الدولة ، واعرضوا عن مصالح العباد ، وانهمكوا في اللذات لتحق عليهم كلمة العذاب . « ١ »

والمتأمل لهذا النص الذي يقدمه المقريزي وهو بصدد الحديث عن الأسباب الكامنة وراء الأزمات الأقتصادية ، فنجده قد ذكر في اطار حديثه عن السبب الأول الذي يتعلق بالفساد السياسي الذي استشرى في مصر في عصر سلاطين المماليك ، ولذي تبدت مظاهره وصوره فيما يأتي :

أ - انتشار الرشوة

ب - تولي المناصب القيادية في الدولة لمن هم ليسوا أهلاً لهذه المناصب .

ج - وتكون النتيجة عن تولي المناصب لمن لا يستحقونها ذيوع السطو علي أموال الرعية بدون وجه حق .

---

١ - اغاثة : ص ٤٣ ـ ٤٥

د - فرض الضرائب والأموال علي الرعية بالضرورة .

هـ - وكان من نتيجة انتشار الظلم وفرض الضرائب أن هجر اهل الريف زراعاتهم وأوطانهم

و - وترتب على ذلك آيضاً انتشار القلاقل واللصوص واصحاب الملذات .

أما السبب الثاني : فهو غلاء الأطيان ، وذلك أن قوماً ترقوا في خدم الأمراء يتولقون إليهم بما جبو من الأموال إلى أن استولوا على احوالهم ، فأحبوا مزيد القربة منهم ، لا وسيلة أقرب إليهم من المال ، فتعدوا الأراضي الجارية في اقطاعات الأمراء واحضروا مستأجريها من الفلاحين ، وزادوا في مقادير الأجر ، فثقلت لذلك متحصلات مواليهم من الأمراء ، فاتخذوا ذلك يداً يمنون بها علهيم ، ونعمة يعدونها إن شاءوا عليهم ، فجعلوا الزيادة ديدنهم كل عام، وتعطلت أكثر الأراضي الزراعية ، فقلت اغلال وغيرها مما تخرجه األرض لموت أكثر الفلاحين وتشردهم في ابللاد من شدة السنين وهلاك الدواب ، ولعجز كثير من أرباب الأراضي عن ازدراعها لغلو البنذور وقلة المزارعين ، وقد اشرف الأقليم لأجل هذا الذي قلنا على البوار والدمار . « ١ »

وهذه الفقرة تحمل عمقاً في الرؤية واحساساً تاريخياً بحقائق ما وراء

---

١ - اغاثة : ص ٤٥ ـ ٤٦

الأحداث وأن اسبابها وعللها ـ تبدي ذلك في وعي المقريزي باسباب غلاء الأطيان وهلكة الزرع وغلاء الثمار والحبوب ، وذلك حين اكتشف أن هؤلاء الذين عملوا في خدمة الأمراء تفننوا من القرب إليهم ، عن طريق السطو والظلم علي رقاب الفلاحين الضعفاء عندما فرضوا عليهم مقادير لإيجاد الأراضي تزيد كثيراً عن المنتوج والمحصول ، وكل ذلك في سبيل التقرب من الأمراء ، وكان من نتيجة ذلك ـ كما ذكر المقريزي ـ تعطل الأرض وندرة الغلال ، وهلكة الدواب وتشرد الفلاحين ، وكان ذلك من الأسباب الواضحة في ازدياد الإبتلاء وشدة الأزمة الأقتصادية التي عصفت بمصر في ذلك الوقت .

والسبب الثالث : رواج الفلوس : وفيه يقول :

ان النقود التي تكون اثماناً للمبيعات وقيماً للأعمال إنما هي الذهب والفضة فقط لا يعلم في خبر صحيح ولا سقيم عن أنة من الأمم ، ولا طائفة من طوائف البشر أنهم اتخذوا ابداً في قديم الزمان ولا حديثه نقداً غيرهما ، حتى قيل إن أول من ضرب الدينار والدرهم آدم عليه السلام وبلغ المثقال من الذهب يثغر الأسكندرية ثلاثمائة درهم من الفلوس ، فدهى الناس بسبب ذلك داهية اذهبت المال ، واوجبت قلة الأقوات ، وتعذر وجود المطلوبات

لأختلاف النقود ، وإنه ليخشى من تمادي ذلك أن يحول اهل الأقليم . « ١ »

وهذا يعني التعرض - من قبل المقريزي - للنظرية الأقتصادية المتعلقة " بتثبيت النقد " وعلاج تدهوره ، وقد استطرد المقريزي اثناء شرحه فأوضح اثر الأسراف في اصدار الفلوس ، واستخدامها عمله رئيسية ، وقسم المجتمعات إلى طبقات ، وبين أثر التضخم في حالة هذه الطبقات ، موضحاً أن افراد الطبقات ذات الدخل الثابت هم الذين يتأثرون تأثراً واضحاً بهذا التضخم . « ٢ »

ونوع الفلوس الذي يقصده المقريزي هنا - في مقابل الذهب والفضة - هي العملة النحاسية ، والأعتماد عليها كنقد اساس ، واستعمالها في المعاملات المالية الكبرى ، دون الذهب والفضة أو بعبارة أخرى دون الدينار والدرهم ، ومهما يقال في الفلوس فهي دون شك عملة رديئة لأنها معدن رخيص ، إذا قورنت بالنقود الذهبية والفضية ٠

ثم أن المقريزي يتهم الحكام بإثارة ظاهرة عدم الأستقرار الأقتصادي في السوق لأنهم أكثروا من زيف النقود المتداولة بين الناس ، كما أنهم لم يكتفوا بالإكثار من ضرب الفلوس النحاسية فحسب ، وإنما اختلفوا في

١ - اغاثة : ص ٤٧ : ويعرض المقريزي من ص ٤٧ حتى ص ٧٢ للحديث عن النقود وتاريخ صناعتها منذ آدم عيه السلام حتى عصره الذي عاش فيه
٢ - دراسات حول المقريزي : مرجع سابق : ص ٣٠

تقدير وأنها فحيناً يكون الرطل منها بستة دراهم ، وأحياناص بأثنى عشر درهماً ، وربما صار بدرهمين ونصف ، وفي جميع الحالات أرغم التجار والأهالي علي التعامل بها وفق القيمة التي تحددها الحكومة ، مما اضطر كثيرين من التجار إلى حبس بضائعهم تجنباً لنجسها ، ويصحب هذه الحالة ارتفاع الأسعار وارتباك السوق وقلة الخبز . « ١ »

وبحاسة اقتصادية قوية ، يربط المقريزي ـ في كتاب السلوك ـ بين ارتفاع سعر الذهب من ناحية وارتفاع اثمان البضائع واجور العمال وإيجار الأراضي من ناحية أخرى . « ٢»

وكذلك فإن المقريزي لم يحصر أفقه الأقتصادي داخل مصر واسعار العملات الأجنبية العالمية في ذلك الوقت ، من ذلك أنه يثمن بها الدينار الأفرنتي والدينار التركي والدينار المغربي ، كما أنه يقارن بين الدنانير السابق سكها في مصر كالدينار الناصري والدينار السالمي ، ويتعرض خلال ذلك إلى ما دخل علي كل عملة من غش وزيف . « ٣ »

بل أنه يحرص في حوادث سنة ٨١٨هـ علي بيان أصناف الذهب وسعر كل صنف .

---

١ - اغاثة : ص ٤٧ وما بعدها
٢ - السلوك : جـ ٤ : احداث سنة٨٠٩هـ
٣ - نفسه :ج٤ : احداث سنة ٨١٨هـ

وبعـد ذكـر الأسبـاب الثـلاثة التي عـددها المقـريزي لتـعليل الأزمـة الأقتصادية ، يذكر من الأسباب أيضاً الأسباب التي تحدث في البيئة المصرية بصفة خاصة وهي ظاهرة « قصور النيل »

يقـول المقريزي مـا نصه " قـصر النيل في سنة ست وثمـانمائه ، فـسنع الأمر ، وارتـفعت الأسـعار ، حتى تجاوز أردب القـمح أربعمـائه درهـم ، وسرى ذلك في كل ما يباع من مأكول ومشروب وملبوس ، وتزايدت أجر الأجراء ـ كالبناء والفعلة وأرباب الصنائع والمهن ـ تزايداً لم يسمع بمثله فيما يقـرب من هذا الزمن " أما الأمـر الثاني فهو اختلال أوضـاع الدولة إدارياً واقتـصادياً ، الأمر الذي جعل الأزمة لا تنفرج رغم زوال سببها الطبيعي المرتبط بنهر النيل .

ففي سنة٧٠٧ هـ "جاء الغوث من عند الله تعالى ، فكثرت زيادة النيل ، وعم النفع به الإقليم ومع ذلك فإن الأوضاع ظلت سيئة على ما هي عليه ، مما جـعل المقـريزي يقـول " ونحن الآن في أوائل سنة ثمـان وثمـانمائه ، والأمر فيها من اختلاف النقود ، وقلة ما يحتاج إليه وسوء التدبير ، وفساد الرأي في غاية لامرمى وراءها من عظيم البلاء وشنيع الأمر . . " « ١ »

وإذا كـان المقريزي قد عـدد اسباباً ثلاثة لشـدة الغلوات والبـلاء ، ثم تحدث عن قصور النيل وقلة ماءه وما يسببه ذلك على الزرع والفلاح ، فما

١ الأغاثة : ص ٤٢ ـ ٤٣

الفرق بين النوعين من الأسباب في تعليل الأزمة التي عاشتها مصر في ذلك الوقت .

يرى أحد الباحثين حول هذا الجانب إن علينا أن نشير إلى الفارق الواضح بين السبب الطبيعي المرتبط بقصور النيل والدي كثيراً ماترتبت عليه أزمات طاحنة ـ وبين الأسباب الأخرى التي فسر بها المقريزي سوء أوضاع البلاد والعباد سنة ٨٠٨هـ . . فالجانب الأول المرتبط بقصور النيل ـ مع قسوته وشدته وخطورة آثاره ـ يشكل سبباً طارئاً مؤقتاً لا يلبث أن يزول بعد عام أو أكثر بارتفاع منسوب المياه في نهر النيل ، وعندئذ يعود الرخاء ، وتعود الحياة الأقتصادية ـ وغير الأقتصادية ـ إلى طبيعتها بالتدريج .

أما الأسباب الثلاثة التي ذكرهاالمقريزي ، وفسر في ضوئها سوء الأوضاع سنة ٨٠٨هـ فترجع في جوهرها إلى الفساد الذي أخذ يدب في جسم الدولة بعد أن انحل نظامها وفقدت اتزانها ودبت الشيخوخة المبكرة في جسمها . « ١ »

ولم تغب هذه الفوارق بيناالجانبين عن المقريزي ، فيقول في مقدمة كتابه " اغاثة الأمة بكشف الغمة " ما نصه :

" وبعد ، فإنه لما طال أمد هذا البلاء المبين ـ يعني أزمة ٨٠٦ـ٨٠٨ هـ وحل فيه بالخلق أنواع العذاب المهين ، ظن كثير من الناس أن هذه المحن لم

١ - اضواء جديدة على المؤرخ أحمد بن علي المقريزي ومؤلفاته : ص ١٩٧

سكن فيما مضى مثلها ، ولامر على زمن شبهها . . . ومن تأمل هذه الحادث من بدايته إلى نهاية ، وعرفه من أوله إلى غايته ، وعلم أن ما بالناس سوى تدبير الزعماء والحكام ، وغفلتهم عن النظر في مصالح العباد ، إلا أنه كما مر من الغلوات وانقضى من السنوات المهلكات إلا أن ذلك يحتاج إلى ايضاح وبيان ويقتضي إلى شرح وتبيان " . « ١ »

وبعد هذا العرض الذي قدمه المقريزي محللاً وضع مصر الأقتصادي في عصر سلاطين المماليك ، ومبيناً الأسباب الحقيقية من وراء المجاعات والأوبئة وخاصة الأحداث المتعلقة بعام ٨٠٨هـ وهو العام الذي بسبب أحداثه وضع كتابه " اغاثة الأمة " يقول المقريزي : " بقى أن يتعرف من فتق الله ذهنه ، وازال غشاء بصره ، كيف العمل في ازالة ما بالناس من هذه البليات لتعود أحوالهم إلى مثل ماكانت عليه من قبل : فنقول أعلم أرشدك الله إلى صلاح نفسك والهمك مراشد أبناء جنسك ، أن النقود المعتبرة شرعاً وعقلاً وعادة إنما هذ الذهب والفضة فقط ، وما عداها لا يصلح أن يكون نقداً ، وكذلك لا يستقيم أمر الناس إلا بحملهم علي الأمر الطبيعي الشرعي في ذلك ، وهو تعاملهم في اثمان مبيعاته واعواض قيمة اعمالهم بالفضة والذهب لا غير " « ٢ »

---

١ - أغاثة : ص٣ ـ ٤
٢ - نفسه : ص ٨٠.

وقد تحدثنا فيما سبق حول هذا الجانب الخاص بالنقود ونوعيتها واثرها علي حركة الأقتصاد ولأوضاع المعيشية ، ثم يرد المقريزي علي الذين يهاجمون هذا المنهج فيقول : " لا شك أن فيما ذكرنا فائدتين جليلتين ، أحداهما رجوع احوال المبيعات والفائدة الثانية بقاء ما بأيدي الناس من الذهب والفلوس - اللذين هما النقد الرائج الآن - علي ما هما عليه من غير زيادة ولا نقص ، مع رد الأحوال والرفه والرخص إل ما كانت عليه أولاً قبل هذه المحن " . « ١ »

وبعد هذا العرض لرؤية المقريزي للواقع المصري - وخاصة من جانبه الأقتصادي - نعرج علي موقفه من بعض الظواهر الإجتماعية ورؤيته لذلك .

---

١ - نفسه : ص ٨٢

(ب)

رؤية المقريزي الإجتماعية

عرضنا فيما سبق للجانب الأقتصادي في رؤيةالمقريزي لتاريخ المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، وتبين لنا ـ ودون مبالغة ـ تلك النظرة الفلسفية والمنهجية الموضوعية التي تميز عقل المقريزي وشخصيته في فهم الواقع التاريخي والنفاذ إلى الأسباب الكامنة وراء احداثه ووقائعه بصورة تقف عند ادق التفاصيل التعلقة بحياتة الناس ، وهو منحي يتسم بالواقعية في رصد الأحداث بالإضافة إلى العمق في فهم حقائقها ٠

والآن كيف عرض المقريزي للجانب الإجتماعي في مؤلفاته ، والملاحظ أن نظرته الإقتصادية قد سيطرت على منهجه في كتاب " اغاثة الأمة " مع ذكر القليل عن الجانب الإجتماعي المتعلق بحياة الناس وقيمهم وعاداتهم وغير ذلك ، هذا لا يعني عدم وجود رصد للجانب الإجتماعي في مواضع أخرى من مؤلفاته ، متناثرة هنا وهناك ، وسنحاول أن نلمح إلى بعض من هذه الأقوال والنظرات ، ونبدأ بما سطره في " اغاثة الأمة "

يبدأ التعرض لمباشر للمسألة الإجتماعية في " اغاثة اأمة " حين يقوم بتقسيم اهل مصر إلى سبعة أقسام يقول :

أعلم حرسك الله بعينه التي لا تنام وركنه الذي لا يرام ، أن الناس

في اقليم مصر جملة علي سبعة أقسام :

القسم الأول : أهل الدولة ، **والقسم الثاني** : اهل اليسار من التجار واولى النعمة من ذوي الرفاهية ، **والقسم الثالث** : الباعة وهم متوسطو الحال من التجار ويلحق بهم اصحاب المعايش وهم السوقه **والقسم الرابع** : أهل الفلح ، وهم اهل الزراعات والحرث ، سكان القرى والريف ، **والقسم الخامس** : الفقراء ، وهم جل الفهاء وطلاب العلم ، والكثير من اجناد الحلقة ونحوهم ، **والقسم السادس** : ارباب الصنائع والأجراء اصحاب المهن ، **والقسم السابع** : ذوو الحاجة والمسكنة ، وهم السؤال الذين يتكففون الناس ويعيشون منهم . « ١ »

وبخصوص القسم الأول وهم اهل الدولة يقول عنهم المقريزي :

فاهل الدولة لو الهموا رشدهم ونصحوا انفسهم لعلموا أنهم لم ينلهم ربح البتة بزيادة الأطيان ، ولا بغلاء سعر الذهب الذي كان من أصل هذا البلاء ، وسبب هذه المحن ، بل هم خاسرون ، وإن ذلك من تلبيس مباشريهم لنيلهم ما يحبون من أعراضهم .

وأما القسم الثاني وهم مياسير التجار واولوا النعمة والترف ، فيرى المقريزي أن ماله قد اكلته النفقات ، واتلفه اختلاف النقود ، فيلعم فساد ما كان يظن ، وكذب ما ان يزعم ، ومن يضلل الله فما له من هاد .

---

١ - أغاثة : ص٧٢ ـ ٧٣

واما القسم الثالث وهم ارباب المعايش ، فإنهم في هذه المحن يعيشون مما يتحصل لهم من الربح ، فإن احدهم لا يقنع من الفوائد إلا بالكثير جداً ، وهو بعيد ساعات من يوم ينفق ما اكتسبه فيا لابد له منه من الكلف وحسبه الا يستدين لبقية حاجاته .

وأما القسم الرابع وهم اصحاب الفلاحة والحرث ، فهلك معظمهم لشدة السنين وتوالى المحن بقلة ري لأرض ، ومنهم من الثري وهم الذين ارتوت اراضيهم في سنى المحل ، فنالوا من زراعتها اموالاً جزيلة عاشوا بها هذه الأزمنة ، على أن فيهم من عظمت ثروته ، وفخمت نعمته ، ونال ما أبى عليمرارة . وزاد علي أمله واله يقيض ويبسط وإليه ترجعون .

وأما القسم الخامس فهم أكثر الفقهاء وطلاب العلم ، ومن يلحق بهم من الشهود « الموظفون » واكثير من اجناد الخلق ، ومن شابههم ممن له عقار أو جار فهم ما بين ميت أو مشتهي الموت لسوء ما حل بهم .

وأما القسم السادس فهم أرباب المهن والأجراء والحمالين والخدم والسواس والحاكة والبناه والفعلة ونحوهم ، فإن اجرهم تضاعفت تضاعفاً كثيراً ، إلا أنه لم يبق منهم إلا القليل لموت اكثرهم ، بحيث لم يوجد منهم الواحد إلا بعد تطلب وعناء ولله عاقبة الأمور .

وأما القسم السابع ، فهم اهل الخصاصة والمسكنة ، ففنى معظمهم جوعاً وبرداً ولم يبق منهم إلا اقل من القليل . « ١ »

ويعلق احد الباحثين في مجال العصور الوسطى علي هذا التقسيم بأنه مهما يكن في هذا التقسم من ثغرات ، فمن الواضح أن المقريزي اتى به في سياق دراسة اقتصادية ، ولذا فإنه حرص على أن يوضح الحالة الأقتصادية لكل شريحة من شرائح المجتمع التي ذكرها ، ولا يخفى عنا أن الوضع الإجتماعي يتأثر إلى حد كبير بالوضع الأقتصادي ، وخاصة في تلك العصور التي عاصرها المقريزي وكتب عنها . « ٢ »

وفي كلامه عن طوائف المماليك يشير إلى أصولهم ، ويوضح كيفية جلبهم والقواعد المتبعة في نسبتهم ، ويلقى الأضواء على أسلوب تربيتهم ونشأتهم ، ويفسر الروابط بين المملوك واستاذه ـ أي سيده الذي امتلكه واشرف على تربيته ولم يضن عليه بعطف أو مال ـ والعلاقة بين المماليك بعضهم وبعض ، ومدى ما كانت تتمتع به طبقة المماليك من ثراء ومظاهر هذا الثراء ومصادره ، وهكذا حتى ندرك السنوات الأخيرة من حوليات المقريزي فتلمس كثيراً من الاشارات إلى تطرق الفساد إلى نظام المماليك ،

---

١ - **أغاثة الأمة : ص٧٤ ـ ٧٥**

٢ - **اضواء جديدة علي المورخ أحمد بـــن علي القريزي ومؤلفاته : مرجع سابق : ص ٢٠٠ ـ ٢٠١**

وانحلال امرهم ، وانعكاس ذلك على أوضاع الدولة . « ١ »

وحول أنه ذكر اديرتهم بالوجه القبلي فبلغ عددها ثمانية وخمسين ديراً ، يحمل النصاري إلى رهبانها النذور والقرابين . « ٢ »

وكان للأقباط في مصر بطرك يخلع عليه السلطان خلعة البطركية . «٣»

كما أنهم تمسكوا بلغتهم القبطية في محادثاتهم فيما بينهم وبين بعض . « ٤ »

ولم يكن اليهود في مصر أقل حظاً في التمتع بحقوقهم ، فاحتفظوا بعوائدهم ونظمهم امورثة ، كما احتفظوا بمعابدهم التي عددها المقريزي . « ٥ »

ومع ذلك فإن المقريزي لم يتناسى أن اليهود والنصارى جميعاً تعرضوا احياناً في ذلك العصر في فترات محددة ـ لبعض الوان الأضطهاد ، لأسباب طارئة مؤقتة . « ٦ »

---

١ - المقريزي : السلوك : جـ٢ : ص ٥٢٤ ـ ٥٢٥ ، المواعظ والأعتبار : الطبعة الأهلية : جـ٣ ص ١١٢ وما بعدها .
٢ - اخبار قبط مصر :المقريزي : ص ٣٦ ـ ٥٤ بالتفصيل
٣ السلوك : جـ١ : ص ٣٨٦
٤ - اخبار قبط مصر :ص ٤٣
٥ - المواعظ والأعتبار : جـ٢ : ص ٤٦٤ وما بعدها .
٦ - السلوك : جـ١ : ص٩٠٩

وحول علاقات الطبقات ببعضها وعلاقتها بالحكام من ناحسة اخرى ، وذلك حين اشار إلى أن سلاطين المماليك في مصر حرصوا على احترام العلماء والفقهاء . « ١ »

ويتعرض المقريزي لكثير من المظاهر الإجتماعية ، كاوضاع التجار وسلوكهم الإجتماعي ، ويتحدث عن العلاقة بين الأغنياء والفقراء ، وحياة الفلاحين ، وصورة الحياة الإجتماعية في القاهرة بكل زخارفها وتداخلها ، وذلك في " السلوك " وكذلك في " المواعظ والأعتبار " .

ونتلمس من عرضه لهذه المظاهر ، ولا ننسى نظرته الأنسانية التي برزت بوضوح في حديثه عن الفقراء والعلاقة بينهم وبين الطبقات الثرية ، وغير ذلك من جوانب تبرز بوضوح منهاجية المقريزي في النظر إلى الأوضاع الإجتماعية وتحليلها .

وبهذا الفهم لحركة التاريخ المصري في عصر سلاطين المماليك ، تتضح صفة الموضوعية المطلوبة ، والتي هي في حقيقة الأمر تعتبر ديدن وجوهر النظرة إلى التاريخ والتى فيها يقول فيلسوف التاريخ " ادواردكار "

أن وقائع التاريخ لا يمكن أن تكون موضعية صرفة طالما أنها لا تصبح وقائع تاريخية إلا تبعاً للمغزى الذي يضيفه المؤرخ عليها . أن الموضوعية في التاريخ ـ إذا ماكنا سنثابر علي استخدام هذا التعبير التقليدي ـ لا يمكن أن

١ - السلوك : جـ٣ : ص ٣٨٣

تكون موضوعية وقائع ، وانما موضوعية وقائع ، وانما موضوعية علاقة : العلاقة بين الماصي والتفسير ، بين الماض والحاضر ولمستقبل ، أن محاولة الحكم علي الأحداث التاريخية عبر اقامة معيار مطلق للقيم خارج التاريخ وعلى نحو مستقل عنه أمراً غير تاريخي ، لكن مفهوم الحقيقة المطلقة لا يتلاءم كذلك مع عالم التاريخ - أو فيما اعتقد ، مع عالم العلم . ان البيانات التاريخية الأكثر بساطة هي وحدها القابلة للحكم علي اساس أنها صحيحة مطلقاً أو خاطئة . « ١ »

ومن خلال توخي الموضوعية نختتم ما قاله المقريزي حين ربط الموضوعية بالحكمة والعبرة والفائدة كقيم مستهدفة من وراء فهم التاريخ وفلسفته فيقول ، وذلك حين تحدث عن الغاية من تأليفه لكتابة المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار " حين قال : أن منفعته هي أن يشرف المرء في زمن قصير على ما كان في أرض مصر من الحوادث والتغييرات في الأزمنة المتطاولة والأعوام الكثيرة ، فتتهذب بتدبر ذلك نفسه وترتاض اخلاقه ، فيجب الخير ويفعله ، ويكره الشرويتجنبه ، ويعرف فناء الدنيا فيحظى بالأعراض عنها والأقبال على ما يبقى . «٢ »

وهل نعتبر من يقول بهذا الكلام وينهج هذا النهج إلا فيلسوفاً للتاريخ؟

١ - ادواردكار : ماهو التاريخ : مرجع سابق : ص ١٣٦ - ١٣٧
٢ - المواعظ والأعتبار بذكر الحطط والآثار : امقريزي : جـ١ : ص ٤ : القاهره : ط : مؤسسة الحلبي . بدون

قائمة المراجع

١ - ابن خلدون : المقدمة : القاهرة : المطبعة البهية - بدون .

٢ - د . احمد ابراهيم الشريف - دراسات في الحضارة الإسلامية : القاهرة : دار الفكر العربي : ط٢ : ١٩٨١م

٣ - د . احمد محمود صبحي : في فلسفة التاريخ : الأسكندرية : مؤسسة الثقافة الجامعية : ١٩٧٥م .

٤ - ادوارد كار : ماهو التاريخ : ترجمة : ماهر كيالي ، بيار عقل : بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشرك ط ٢ : ١٩٨٠ م

٥ - إلبان ويدجيري : المذاهب الكبرى في التاريخ ترجمة : ذوقان قرقوط : بيروت : دار الم للملايين : ط ١ : ١٩٧٢م

٦ - د . توفيق الطويل : اسس الفلسفة : القاهرة : دار النهضة العربية : ط٦ : ١٩٧٦ .

٧ - جوستاف لوبون : فلسفة التاريخ : ترجمة عادل زعيتر : القاهرة : دار المعارف : ١٩٥٤م

٨ - جون هرمان راندال : تكوين العقل احديث : ترجمة جورج طعمه : بيروت : دار الثقافة : ط١ : ١٩٦٥م

٩ - د . حسن عثمان : منهج البحث التاريخي : القاهرة : دار المعارف : ط ١٩٧٦م

١٠ - د . حسين مؤنس : أحاديث منتصف الليل : القاهره : كتاب الهلال : ١٩٧٧م

١١ - ساطع الحصري : دراسات عن مقدمة ابن خلدون : القاهرة مكتبة الخانجي : ط٣ : ١٩٦٧م

١٢ - السخاوي : الضوء اللامع في علماء القرن التاسع : القاهرة ١٣٥٤هـ

١٣ - د . سعيد عاشور : أضواء جديدة على المؤرخ المقريزي ومؤلفاته : عالم الفكر : م ١٤ ع ٢ : ١٩٨٣م

١٤ - د . سعيد عاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك : القاهرة : دار النهضة العربية : ط١ : ١٩٦٢م

١٥ - د . عزمي اسلام : في فلسفة العلوم الإنسانية : الكويت : عالم الفكر : م ١٥ : ع ٣ : ديسمبر : ١٩٨٣م

١٦ - علي اومليل : الخطاب التاريخي : دراسة لمنهجية ابن خلدون : بيروت : منشورات معهد الإنماء العربي : بدون .

١٧ - أ . د علي عبد المعطي رؤيه معاصرة في علم المناهج : الأسكندرية : دار المعرفة الجامعية : ١٩٨٤م

١٨ - فرانز روزنتال : علم التاريخ عند المسلمين : ترجمة صالح العلي : بغداد : دار المثنى : ١٩٦٣م

١٩ - كولنجوود : فكرة التاريخ : ترجمة : محمد بكير خليل : القاهرة : ط١ : لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٨م .

٢٠ - المقريزي : اغاثة الأمة بكشف الغمه : تحقيق : د . محمد مصطفى زياده ، و د . جمال الدين الشيال : القاهرة : لجنة التأليف والترجمة والنشر : ١٣٥٩هـ - ١٩٤٠م

٢١ - المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك : القاهرة : ط " دار اكتب " : بدون .

٢٢ - المقريزي : المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والاثار : ط " بولاق "

٢٣ - مجموعة اساتذة : دراسات عن المقريزي : القاهرة : الهيئة المصريه العامه للكتاب : بدون

٢٤ - ولسن : مدخل لفلسفة التاريخ : ترجمة : أحمد حمد محمود : القاهرة مؤسسة سجل العرب : ١٩٦٢م

٢٥ - هرنشو : علم التاريخ : ترجمة : عبد الحميد العبادي : القاهره : ١٩٧٣م

المراجع الأجنبية :

1 - Gilliange (F . H) the principles of sociology : London : 1924

2 - Fling . F . M : An introduction to historical method , new haven : yalewm press : London : 1926 .

3 - Mohsen Mahdi : Ibn khaldoun's philosophy of history : G . Allen and unwin : London : 1957

4 - Oman , chr : on the writing of history : London : 1939

الفهرس